الأديان في خدمة الإنسان

الإمام السيد موسى الصدر



الأديان في خدمة الإنسان

الإمام السيد
موسى الصدر

الأديان في خدمة الإنسان



مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات

291.1
M985a
الصدر، موسى
الأديان في خدمة الإنسان: محاضرات للإمام السيد موسى الصدر/ موسى الصدر.- ط1.- بيروت: مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، 2019
168 ص؛ 21.5 سم.
يشتمل على كشاف
ISBN 978-9953-0-5130-7

1. موسى الصدر 2. الأديان
3. الإنسان أ. العنوان

الطبعة الأولى 2019
الناشر: مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات
بيروت، طريق المطار، مفرق الأوزاعي، قرب نادي الصداقة
مجمع الإمام السيد موسى الصدر الثقافي الاجتماعي، ط 1
هاتف 454521 1 961 + **فاكس** 454512 1 961 +
info@imamsadr.net
www.imamsadr.net

بسم الله الرحمن الرحيم

{شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}

[الشورى، 13]

صدق الله العلي العظيم

مقدمة

"هل الذين يكتفون أو يريدون من الأديان أن تكتفي بالإيمان والأخلاق يعتقدون أن صيانة الإيمان والمحافظة على الأخلاق الحسنة أمران ممكنان لمن لا يرتبط في عمله الخارجي بخطة تتناسب مع الإيمان والأخلاق المذكورين؟"

سؤال يطرحه الإمام موسى الصدر ليجيب عنه ضمن فضاءات الدين، وليشمل إجابة أوسع من هذا الطرح. فالولوج مع الإمام الصدر إلى عالَم الدين هو البحث عن تفاصيل تحيط بالإنسان من كلّ جانب: في الوعي والسعي والعمل والتفكر و... و... لغرض خدمة الإنسان أمانة الله وخليفته على الأرض عندما ***"كانت الأديان واحدة حيث كانت في خدمة الهدف الواحد: دعوة إلى الله وخدمة للإنسان"***.

النصوص الواردة في هذا الكتاب تختلف زمانًا ومكانًا فيما بينها، ولكنها تجتمع على رؤية الإمام الكونية للدين كسبيل لتحقيق السعادة. سبعة نصوص تثير وتجيب على الكثير من التساؤلات حول دور الدين وتأثيره في حياة الإنسان وسلوكه ومواقفه، وكيفية فهم الدين لتغيير الواقع ومحاولة لقراءة الذات الإنسانية وعلاقاتها، أما النص الثامن "لبنان والحضارة الإنسانية" فهو لقاء وحوار صحفي مع وفد نقابة المحررين ارتأينا إيراده هنا للتدليل على أهمية لبنان دينيًا وحضاريًا. وقد أخضع المركز جميع هذه النصوص للمعالجة من حيث التدقيق والتحقيق، وأيضًا إضافة مخطوطة للإمام الصدر تتعلق بالمضمون عينه.

ويشكر المركز كلّ من شارك وساهم وساعد في إخراج هذا العمل بأفضل ما يكون، والذي لولا جهدهم ما كان ليخرج إلى النور.

والله وليٌّ التوفيق.

مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات

2019

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم ونشكرك ربنا اله ابرهيم واسماعيل، اله موسى وعيسى
محمد، رب المستضعفين واله الخلق اجمعين

الحمد لله الذي يؤمن الخائفين وينجي الصالحين ويرفع المستضعفين
ويضع المستكبرين ويهلك ملوكا ويستخلف آخرين والحمد لله قاصم الجبارين
مبير الظالمين، مدرك الهاربين، نكال الظالمين، صريخ المستصرخين

الحمد لله الذي لا يهتك حجابه ولا يغلق بابه ولا يرد سائله
ولا يخيب آمله

نحمدك اللهم ربنا على ان وفقتنا بعنايتك وجمعتنا بهدايتك وجددت
قلوبنا بحبك ورحمتك

وها نحن نجتمع بين يديك، في بيت من بيوتك، في لحظات
الصيام من اجلك، قلوبنا تهفو اليك، وعقولنا تستمد النور والهداية منك
معترفين أنك دعوتنا الى ان نسير جنبا الى جنب في خدمة خلقك وان
نلتقي على كلمة سواء، لاجل سعادة خليقتك فالى بابك توجهنا وفي محرابك صلينا
اجتمعنا من اجل الانسان، الذي كان من اجله الاديان

وكانت واحدة، آنذاك يبشر بعضها ببعض ويصدق احدها الآخر
فاخرج الله الناس بها من الظلمات الى النور بعد انقذهم
من الخلافات الكثيرة الساحقة والمفرقة وعلمهم السلوك في سبل السلام.
كانت الاديان واحدة حيث كانت في خدمة الهدف الواحد
دعوة الى الله، وخدمة للانسان، ثم اختلفت عندما اتجهت الى خدمة نفسها ايضا

ثم تعاظم اهتمامها بنفسها حتى كادت ان تنسى الغاية، فتعاظم الخلاف

واشتد فازدادت محنة الانسان و آلامه

كانت الاديان واحدة ، تهدف الى غاية واحدة ، تحرير الانسان

حرب على آلهة الارض و الطغاة و نصرة المستضعفين و المضطهدين وغايتها

وحيان لحقيقة واحدة . و لما انتصرت و انتصر معها المستضعفون وجدوا أن
الطغاة غيروا اللبوس و سبقوهم الى المكاسب ، وأنهم اي الطغاة بدأوا

يحكمون باسم الاديان و يحملون سيفها

فكانت المحنة المتعاظمة للمضطهدين وكانت محنة الاديان
و خلافاتها . و لا خلاف الا في مصالح المستغلين .

كانت الاديان واحدة لان المبدأ الذي هو الله واحد و الهدف الذي

هو الانسان واحد و المسير الذي هو هذا الكون واحد . و عندما نسينا
الهدف و ابتعدنا عن خدمة الانسان ، نسينا الله و ابتعدنا عنه فأصبحنا

فرقاً و طرائق قدداً و ألقى بأسنا بيننا ، فاختلفنا و وزعنا الكون الواحد

و خدمنا المصالح الخاصة و عبدناها من دون الله و كفّرنا الانسان فتمزق

والآن نعود الى الطريق ، نعود الى الانسان ليعود الله الينا

نعود الى الانسان المعذب لكي ننجو من عذاب الله ، نلتقي على الانسان

المستضعف المسحوق و المحروق لكي نلتقي في كل شيء ولكي نلتقي في الله

فتكون الاديان واحدة . « و لكل جعلنا منكم شرعة و منهاجاً - ولو شاء

الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله
مرجعكم جميعاً .

الإنسان في حاجاته وكفاءاته[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم ونشكرك، ربّنا، إله إبراهيم وإسماعيل، إله موسى وعيسى ومحمد، ربّ المستضعفين وإله الخلق أجمعين.

الحمد لله الذي يؤمّن الخائفين، وينجّي الصالحين، ويرفع المستضعفين، ويضع المستكبرين، ويهلك ملوكًا ويستخلف آخرين. والحمد لله قاصم الجبارين، مبير الظالمين، مدرك الهاربين، نكال الطاغين، صريخ المستصرخين.

نحمدك اللهم ربّنا على أن وفّقتنا بعنايتك، وجمعتنا بهدايتك، ووحَّدت قلوبنا بمحبّتك ورحمتك. وها نحن نجتمع بين يديك في بيت من بيوتك، وفي أوقات الصيام من أجلك. قلوبنا تهفو إليك، وعقولنا تستمدّ النور والهداية منك، معتبرين أنك دعوتنا إلى أن نسير جنبًا إلى جنب في خدمة خلقك، وأن نلتقي على كلمةٍ سواء لأجل سعادة خليفتك. فإلى بابك اتجهنا، وفي محرابك صلّينا.

اجتمعنا من أجل الإنسان الذي كانت من أجله الأديان، وكانت واحدة آنذاك، يبشّر بعضها ببعض، ويصدّق أحدها الآخر، فأخرج الله الناس بها من الظلمات إلى النور بعد أن أنقذهم بها من الخلافات الكثيرة الساحقة والمفرِّقة، وعلّمهم السلوك في سبيل السلام.

كانت الأديان واحدة حيث كانت في خدمة الهدف الواحد: دعوة إلى الله وخدمة للإنسان، وهما وجهان لحقيقة واحدة. ثم اختلفت عندما اتجهت إلى خدمة نفسها أيضًا، ثم تعاظم اهتمامها بنفسها حتى كادت أن تنسى الغاية، فتعاظم الخلاف واشتدّ فازدادت محنة الإنسان وآلامه.

كانت الأديان واحدة تهدف إلى غاية واحدة، حرب على آلهة الأرض والطغاة، ونصرة للمستضعفين والمضطهدين، وهما أيضًا وجهان لحقيقة واحدة. ولمّا انتصرت الأديان وانتصر معها المستضعفون، وجدوا أن الطغاة غيّروا اللبوس وسبقوهم إلى المكاسب، وأنهم بدأوا يحكمون باسم الأديان ويحملون سيفها؛ فكانت المحنة المتعاظمة للمضطهدين، وكانت محنة الأديان والخلافات فيما بينها، ولا خلاف إلّا في مصالح المستغلّين.

كانت الأديان واحدة، لأن البدء الذي هو الله واحد، والهدف الذي هو الإنسان واحد، والمسير الذي هو هذا الكون واحد. وعندما نسينا الهدف وابتعدنا عن خدمة الإنسان، نسيَنا الله وابتعَدَ عنّا، فأصبحنا فِرَقًا وطرائق قددًا، وأُلقي بأسنا بيننا، فاختلفنا، ووزّعنا الكون الواحد، وخدمنا المصالح الخاصة، وعَبَدنا آلهة من دون الله، وسحَقْنا الإنسان فتمزّق.

والآن نعود إلى الطريق، نعود إلى الإنسان ليعود الله إلينا؛ نعود إلى الإنسان المعذَّب لكي ننجو من عذاب الله. نلتقي على الإنسان المستضعف، المسحوق والممزق، لكي نلتقي في كلّ شيء، ولكي نلتقي في الله، فتكون الأديان واحدة.

و{**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما اتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم**} [المائدة، 48].

وفي هذه الساعة، في الكنيسة، في أيام الصيام، خلال موعظة دينية، وبدعوة من المسؤولين الملتزمين، أجد نفسي في وسط الطريق إلى جانبكم. أجد نفسي واعظًا ومتّعظًا، قائلًا ومستمعًا، أقول بلساني وأستمع بجناني، يشهد لنا التاريخ فنستمع، ثم نشهد له فيستمع. يشهد التاريخ للبنان، بلد اللقاء، بلد الإنسان، وطن المضطهدين ومأمن الخائفين. وفي هذه الأجواء، وفي هذا الأفق السامي، نتمكن من أن نستمع إلى النداءات الأصيلة السماوية، لأننا اقتربنا من الينابيع.

ها هو السيّد له المجد في محبّته الغاضبة يصرخ: لا! لا يجتمع حبّ الله مع كره الإنسان؛ فيدوّي صوته في الضمائر، فيرتفع صوت آخر لنبيّ الرحمة: ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعانًا وجاره جائع.

ويتفاعل الصوتان عبر الزمن، فإذا بالصدى يرتفع على لسان الحبر الأعظم وبمناسبة الصيام أيضًا، فيقول: إن المسيح والفقير شخص واحد. بل وفي رسالته الشهيرة "ترقي الشعوب"

يغضب لكرامة الإنسان، ويقول كالمسيح في الهيكل: "عظيمة كانت التجربة بأن تدفع بالعنف مثل تلك المُذِلّات للكرامة الإنسانية". ويقول: "أحطّ إنسانية هي الأنظمة الغاشمة، تنجم عن استغلال حق الملك والسلطان، عن امتصاص العمال، حقوق العمال وجور المعاهدات".

هل يختلف هذا الصوت الطاهر عمّا ورد في الأثر الإسلامي الثابت عن الهدف: أنا الله عند المنكسرة قلوبهم، أنا كنت عند المريض عندما عُدته، وعند الفقير عندما ساعدته، ومع المحتاج عندما سعيتَ لقضاء حاجته؟

أمّا عن الوسيلة فقد اعتبر كلّ سعي لإقامة الحقّ وكلّ جهد لنصرة المظلوم جهادًا في سبيله، وصلاة في محرابه، وهو الكفيل بالنصر.

خلال هذه الشهادات نعود إلى إنساننا لنبحث عن القوى التي تسحق، وعن القوى التي تفرّق؛ الإنسان، هذا العطاء الإلهي، هذا المخلوق الذي خُلق على صورة خالقه في الصفات، خليفة الله في الأرض. الإنسان هذا، أساس الوجود، وبداية المجتمع، والغاية منه، والمحرّك للتاريخ. الإنسان هذا، يعادل ويساوي مجموعة طاقاته، لا لما التقت عليه الفلسفة والفيزياء في قرننا هذا من المبادلة وإمكانية التحوّل بين المادة - كلّ مادة- والطاقة. بل لما تؤكده الأديان والتجارب العلمية: {**أن ليس للإنسان إلا ما سعى**} [النجم، 39]، وأن الأعمال تخلد، وأن الإنسان عدا إشعاعه في مختلف الآفاق لا يساوي شيئًا. لذلك، فبقدر ما صنّا طاقات الإنسان ونمّيناها بقدر ما كرّمناه وخلّدناه.

وإذا كان الإيمان - ببعده السماوي- يعطي الإنسان اللانهائية في الإحساس، واللانهائية في الطموح، وإذا كان الإيمان - ببعده السماوي- يحفظ للإنسان الأمل الدائم عندما تسقط الأسباب، ويزيل عنه القلق، وينسّق بينه وبين بني نوعه من جهة، وبينه وبين الموجودات كلّها من جهة أخرى؛ إذا كان الإيمان - بهذا البعد- يعطي الإنسان هذا الجلال وهذا الجمال، فإن الإيمان ببعده الآخر يسعى لصيانة الإنسان وحفظه، ويفرض المحافظة عليه، ويؤكّد عدم وجود الإيمان دون الالتزام بخدمة الإنسان.

إن طاقات الإنسان كلّها، وطاقات كلّ إنسان يجب صيانتها وتنميتها، ومن أجل ذلك نجد مبدأ الاستكمال سارٍ منذ أيام الرسالات الأولى إلى هذه الرسالة المباركة الصادرة عن الأب الأقدس، حيث ورد فيها: "لكي يكون ترقيًا أصيلًا ينبغي أن يكون كاملًا، أيّ أن يقوِّم كلّ إنسان والإنسان كلّه.

لذلك، فإننا نجد أيضًا أن السرقة من باب المثل حرّمت في الوصايا، حيث كانت اغتصابًا لطاقات الإنسان ولنتائج تلك الطاقات، وها هي اليوم تظهر بصورة الاستثمار والاحتكار، فبحجّة التقدّم الصناعي، أو عن طريق الحاجات المصطنعة التي تُفرض على الإنسان من خلال وسائل الإنتاج عندما يشعر باشتهاء كاذب فيضطر إلى المزيد من الاستهلاك. فالحاجات اليوم، ليست نابعة من ذات الإنسان، وإنّما اصطُنعت اصطناعًا بواسطة الإعلام التابع لوسائل الإنتاج".

وهكذا، يفرض كلّ يوم حاجة جديدة أو تطورًا لحاجة جديدة على الإنسان، فيستدر كافة طاقاته، ويحوِّل الكثيرة منها دون أن يكون له الاختيار في صرفها في الطريق التي يريدها. هكذا، نشاهد أيضًا تطورًا عميقًا في مختلف القوى التي تصدّ طاقات الإنسان فتحطّمها أو تفرّقها، والقوى هذه تبقى في أساسها رغم تفاوت الصور وكثرة التطور.

لقد حارب الدين، مثلًا، الكذب والنفاق، وحارب أيضًا الغرور والكبرياء، وعندما نلاحظ الأساس نجد مدى تأثير هذه الصفات على طاقات الفرد والجماعة. الكذب يزيّف الحقائق والطاقات المعدَّة للمبادلة بين بني الإنسان، تلك الطاقات التي ينمو الإنسان بإعطائها، وبأخذ بديل منها، هذه الطاقات المعدَّة الكذب يزيّفها، فتصبح مجهولة منحرفة، فتتشوّه المبادلات، وتتعطل الطاقات. أمّا الغرور والكبرياء فإنهما يجمّدان الإنسان، لأن الإنسان يشعر معهما بأنه وصل درجة الاكتفاء فيمتنع المغرور عن الأخذ، وبالتالي عن التكامل، ويمتنع الناس من جهة أخرى عن الأخذ منه والتكامل بواسطته، فلا أخذ ولا عطاء، إنه موت الطاقات، إنه موت طاقات الإنسان. وكذلك الصفات الرديفة للكذب أو الغرور.

الحرّية مثلًا، وهي المناخ الملائم لنموّ طاقات الإنسان وبروز مواهبه عند توفير الفرص. هذه الحرّية كانت تتعرض دائمًا للاعتداء وكانت تُغتصب من قبل الآخرين بحجج متنوعة، وبما أنها المناخ المناسب لتنمية كفاءات الإنسان وطاقات الإنسان ومواهبه، فكأن الحرّية هي أم الطاقات، وكانت المعارك وكان الصراع المرير. عندما تُسلب الحرّية من الإنسان، تخضع طاقات الفرد وطاقات الجماعة للحجم الذي يقدّمه الغاصب للحرّية، الحجم الذي يقدّمه للإنسان فيتقزّم الفرد، وتتقزّم الجماعة. وعندما يرفض الإنسان هذا التحجيم ويحاول ونحاول معه بمقتضى إيماننا الحدّ من طغيان هذه القوة المفرِّقة والساحقة، فإنما يدافع إنساننا وندافع معه عن طاقات الإنسان وكراماته دون فرق بين الصيغة التي يأخذها هذا التحجيم عبر الزمن الطويل.

فمن الاستبداد إلى الاستعمار، ومن الإقطاع إلى الإرهاب الفكري، وادّعاء الوصاية على الناس واتّهامهم بأنهم لا يفهمون. ومن الاستعمار الجديد إلى فرض المواقف على الأفراد والشعوب، بضغط اقتصادي أو ثقافي أو فكري. ومن سياسة الإهمال وإبعاد الفرص عن الناس - بعض الناس- وعن المناطق - بعض المناطق- منها إلى التجهيل، حتى منع الصحّة عن الناس وفرص التحرّك والتنمية... صوَرٌ وأشكال لسلب الحرّيات ولتحطيم الطاقات.

والمال، هذا الصنم الأكبر، هذا الذي يعتبره السيد المسيح مانعًا لدخول ملكوت السماء، أكثر من حجم الإبل عندما تحاول إدخاله في خرم الإبرة. المال هذا فتنة، فهو عندما يوضع بحدّه وبقدره في موضعه نِعمَة ورحمة؛ ولكنه عندما يصبح الهدف، فيُعبَد من دون الله، ويصبح قدس الأقداس للإنسان، يتحرّك لأجله ويدور في فلكه، - المال هذا- بدأ ينمو على حساب الحاجات الأخرى للفرد وللجماعة، فيصبح قوّة ساحقة أو مفرِّقة لما يمكّنه تأثيره العميق على حياة الناس، فالكبير يبلع الصغير.

وكذلك جميع الحاجات الإنسانية عندما تنمو على حساب حاجات أخرى في الإنسان، تلك التي نسمّيها بالشهوات، فكلّ حاجة دافع ومحرِّك، بل وقود لتحرّك الإنسان في الحياة، ولكن عندما تنمو هذه الحاجة على حساب حاجات أخرى في الإنسان تشكّل كارثة. وهذا هو سبب المسؤولية الكبرى عن المُلك والمال والجاه والنفوذ وسائر الإمكانات البشرية.

والحقيقة، أن إبعاد الإيمان الذي يجعل الربط بين الله وبين الإنسان في حضور دائم، إبعاد الإيمان عن كونه قاعدة للحضارة الحديثة جعلها معرّضة لهذا الاختلال. وعندما نستعرض تاريخ هذه الحضارة نشعر بأن الإنسان الذي عاش الحضارة الحديثة في كلّ فترة وأخرى، بدأ ينمو في اتجاهه على حساب الاتجاهات الأخرى. فالسياسة والإدارة والسوق والعمران، لأنها كانت غير معتمِدة على القاعدة الإيمانية، تنسقها وتجعلها معتدلة وفي خدمة الجميع لا تسحق ولا تفرّق؛ لأنها لم تكن مبنية على القاعدة الإيمانية، بدأت كلّ حاجة تنمو في فترة من الزمن فكانت الإدارة والسياسة والسوق والعمران، تحوّلت إلى الاستعمار وإلى الحروب وإلى التفتيش عن الأسواق الجديدة، وإلى فترة السلام المسلّح، فجعلت حياة الإنسانية كلّها منتابة بين الحروب الساخنة والباردة، وبين فترة تضميد الجراح والسلام المسلّح.

كما أن حبّ الذات، وهو وقود الكمال للإنسان ومحقق الطموح للإنسان، هذا الأمر الجيّد الذي يمكن أن يخدم الإنسان عندما ينمو في الفرد فيصبح عبادة الذات. حبّ الذات عندما يتحوّل إلى عبادة الذات تبدأ المشكلة. فالتصادم والتمييز العنصري واحتقار الآخرين، والصراع المرير من أصغر خلايا المجتمع إلى المجتمع الدولي، صراع متفاوت الحلقات، محور الدوائر واحد والدوائر تتفاوت.

هذا الصراع الذي اعتبروه جزءًا أساسًا من التكوين، جاء نتيجة لنمو حبّ الذات، وتحوّل حبّ الذات إلى عبادة الذات. وكذلك عندما تتحول الأنانية إلى الجماعة، فالجماعة التي تكوَّنت لخدمة الإنسان، وهو الموجود المدني الجماعي بطبعه، وهو الموجود ذو البعدين الشخصي والجماعي، الأنانية عندما تتحول إلى الجماعة، والجماعة تصبح أنانية موسعة لديها، وهنا تقع المشكلة في أطر مختلفة: فمن الأنانية الذاتية، إلى الأنانية العائلية التي عانى شرورها الإنسان، إلى القبليّة الطاغية التي أصبحت نظامًا ذا آثار ونتائج، إلى الطائفية التي حوّلت بأنانيتها السماء إلى الأرض، وأفرغت محتوى الدين –والمذهب- من سموّه ورفقه وربطه وتسامحه. هذه الطائفية التي تاجرت بالقيَم فأخذت منها ثمنًا متفاوتًا، إلى الوطنية الأنانية. فالوطنية أيضًا، رغم كونها أشرف الحاجات، عندما تتحول إلى الوطنية العنصرية حتى يكاد يحسّ المرء بأنه يعبد وطنه من دون الله، عند ذلك يسمح لنفسه بأن يبني مجد وطنه على أنقاض أوطان الآخرين، وأن يصنع حضارته على تدمير ودمار حضارة الآخرين، ويرفع مستوى شعبه على حساب إفقار الشعوب الأخرى، إلى القومية النازية التي أحرقت العالم أكثر من مرة.

هذه الأمور أنانيات موسعة عبدناها فتحولت إلى نكال ودمار؛ بينما أن حبّ الذات والبرّ بالأهل وحبّ العشيرة وحبّ الوطن والانتماء القومي، نزعات خيّرة في حياة الإنسان، إذا بقيت في مستواها. وعند ذلك، بإمكاننا أن نلقي ضوءًا على العنوان المختار لهذه المحاضرة: "الإنسان في حاجاته وكفاءاته".

والمجتمع الذي يحتضن هذا الإنسان يجب أن يكون منسقًا ككلّ، والفرد يجب أن يكون منسجمًا كالفرد. فكلّما تجاوز من حاجات الإنسان على حساب بقية حاجاته أصبح وبالًا؛ وكلّما نما الفرد أو حاجات الفرد على حساب بقية الأفراد أصبح وبالًا، وكلّما نمَت جماعة أو نمَت حاجات الجماعة فئة بديل فئة أصبحت وبالًا ومصيبة. فالاعتدال وهو الذي يحصل بالتحسس، يبلغ الإنسان

درجة يشعر بأن ألم الآخرين ألمه، وهذا الذي يدعو إليه الصيام. هذا الاعتدال هو الضمانة لسلامة النموّ المنسّق لدى الفرد، ولسلامة النموّ المنسّق لدى الجماعة.

ولبنان بلدنا، البلد الذي رصيده الأول والأخير هو إنسانه، إنسانه الذي كتب مجد لبنان بجهده وبهجرته وبتفكيره وبمبادراته، إنساننا هذا هو الذي يجب أن يُحفظ في هذا البلد. فإذا كان لغير هذا البلد بعد الإنسان ثروة فنحن ثروتنا بعد الإنسان، إنساننا أيضًا. لذلك، جهدنا في لبنان يتّجه في هذه الفرص، وينطلق من المعابد، كما ينطلق من الجامعات والمؤسسات، يتّجه جهدنا بصيانته، وصيانته بصيانة إنسانه، وإنسانه ذو كفاءات متفاوتة، وكلّ إنسانه، والإنسان كلّه يعيش في مناطق مختلفة.

لذلك إذا أردنا أن نصون لبنان، إذا أردنا أن نمارس شعورنا الوطني، إذا أردنا أن نمارس إحساسنا الديني من خلال المبادئ التي عُرضت، فعلينا أن نحفظ إنسان لبنان، كلّ إنسانه، وطاقاته، لا بعضها.

لبنان هذا، عندما نعيش فيه فنشاهد يوميًا الحرمان، نكتشف أن هذا الحرمان ناتج عن سوء الممارسة، والمسؤولية على الجميع. والعنف كما سمعنا في الكلمة المباركة في سبيل الإنسان، وبقدر الحاجة المتوفرة لدى الإنسان، وشرط عدم التأثر والانقلاب على الإنسان، مسموح بنصّ الكلمات.

المناطق التي نعيشها ويعيشها إنساننا في لبنان، هذه المناطق، كإنسان لبنان أمانة في عنقنا وفي عنق المسؤولين أيضًا. الجنوب وكلّ مكان، هذه الأمانات يجب أن تُحفظ لأمر من الله ولأمر من الوطن. ولذلك، فلا بدّ من الانتباه للتفكير وللتنفيذ، فالتفكير الخاطئ خيانتان في الأمانة، والتوظيف الخاطئ خيانتان في الأمانة: خيانة للفساد المباشر، وخيانة لتفويت الفرص على الآخرين وتضييع الأموال والحقوق العامة. الامتيازات تفرّق بأيّ صورة كانت وبأيّ عنوان طُرحت.

لبنان هذا، بلد الإنسان والإنسانية، يبرز واقعه الإنساني من خلال المقارنة المعاشة في هذا اليوم مع العدو، عندما نجد أنه يشكّل مجتمعًا عنصريًا يمارس السّحق والتفرّق في جميع أنواعه المالي والثقافي والسياسي والعسكري، حتى إنه يتجرأ لتحريف التاريخ، وتهويد المدينة المقدسة، وتشويه الآثار التاريخية التي نشاهدها.

إذًا، وطننا ليس فحسب يحفظ لله ولإنسانه، إنما يجب حفظه للإنسانية جمعاء، لإبراز الصورة الحقّة متحدية أمام الصورة الأخرى. وها نحن الآن نجد أنفسنا في فرصة العمر، في فصل

جديد بدأه لبنان.

فلنلتقِ، أيها المؤمنون والمؤمنات، فلنلتقِ على الإنسان، على صعيد الإنسان، كلّ إنسان؛ والإنسان، كلّ إنسان، إنساننا في بيروت، وإنساننا في الجنوب، وإنساننا في الهرمل، وإنساننا في عكار، وإنساننا في ضواحي بيروت، من الكرنتينا وحيّ السلم. الإنسان، كلّ إنسان ليس خارج الفرصة، ولا معزولًا ولا مصنّفًا، فلنحافظ على إنسان لبنان لكي نحفظ هذا البلد، بلد الإنسان، أمانة التاريخ وأمانة الله.

والسلام عليكم ورحمة الله.

الإسلام وكرامة الإنسان[2]

بسم الله الرحمن الرحيم

في مقدمة دراستنا حول كرامة الإنسان في الإسلام، وهو موضوع يشكل زاوية مهمة في رأي الإسلام ونظرته إلى الإنسان، لا بد أن نعرض عرضًا موجزًا نتائج هذا المبدأ، وتأثيره البالغ في تحقيق الهدف من الرسالة.

فالخطوة الأولى في طريق تربية الإنسان ورفع مستواه في جميع حقول التكامل، هي في جعله يشعر بكرامته، ويهتم بشؤون نفسه، وإلا فسوف لا يولي نفسه أيّ اهتمام، ولا يبذل لإصلاح وضعه أيّ نشاط، مهملًا حاضره ومستقبله وحتى ماضيه. فنفقد في هذه الحالة إمكانية إقناعه بالسعي والعمل، وإمكانية التأثير عليه في دعوته لتحسين أموره وأوضاعه، والتحرك نحو الأفضل، ويبقى خاملًا جامدًا لامباليًا، مفضلًا استمراره في وضعه، على تحمّل عناء الحركة وأعباء السعي والنشاط.

نحن لا ننكر أن حبّ الإنسان لنفسه غريزة ثابتة فيه تفرض عليه الدفاع عنها والسعي لجلب الخير لها. ولكن نقول إن هذه الغريزة تبقى نشيطة حسب مستوى الوعي البشري، فتعمل للخير الذي تجده متناسبًا معها وتصدّ ما تعتبره منافيًا لها.

فحبّ النفس هو القوة الدافعة للإنسان، ولكن الشعور بالكرامة فقط يحدد مقام الإنسان، ويرسم الخطوط العريضة لسيره، وتعيين أهدافه السامية، ويميز الخصوم وطريقة الدفاع.

ولا ننكر أيضًا، إمكان رفع مستوى الحياة الإنسانية بطريقة الضغط، وبفرض السعي والعمل، ولكننا نعتقد أن هذه الطريقة، ليست هي المفضلة لتكامل الإنسان، بل فيها من النتائج السلبية

والعقد النفسية، والنقص في النتائج وبقاء المسؤوليات على عاتق الأفراد دون الجماعات، ما يفرض الإعراض عن هذا الأسلوب. فلنترك هذا البحث الذي هو من اختصاص علماء النفس التربويين، ولندخل في دراستنا عن: الإسلام وكرامة الإنسان.

الإنسان خليفة الله على الأرض:

إن الإنسان في رأي الإسلام خليفة الله على الأرض، عالم بالأسماء كلّها، مسجود له من جميع ملائكة الله.

{**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ**} [البقرة، 30-34].

ومفهوم الخليفة، يوضح تمام الوضوح، استقلال البشر وحريته في التصرف على الأرض، أما السبل المرسومة له والخطوط المكتوبة عليه، فهي النصائح التي قررها الله لخليفته الإنسان.

وتعليم الأسماء لآدم، الأسماء التي يعود إليها ضمير **"هم"** المختص بذوي العقول، وتأكيد الله لملائكته بعد اعترافهم بالعجز أنه يعلم غيب السماوات والأرض.

التعليم هذا والتأكيد، يعكسان في الذهن إمكانيات الإنسان الهائلة، وتمكنه من معرفة جميع الموجودات والقوى المتفاعلة في دائرة خلافته، والتي جُعِلت تحت تصرفه في حياته الرسالية.

وسجود الملائكة، وهم نخبة الموجودات، تأكيد صريح لخضوع كافة الموجودات للإنسان وإطاعتها له، وهذا المعنى سيبدو بوضوح أكثر فيما بعد. فالاستقلال بالتصرف، والإمكانات الكبيرة، وخضوع عامة الموجودات، صفات ثلاث نفهمها من الآيات المذكورة، في عبارات هي أقصى حدود التكريم.

الإنسان وحرية التصرف:

وأعتقد أن شعور الملائكة باستقلال البشر في التصرف على الأرض، معرفتهم أن هذا الاستقلال لا يتم، إلا إذا كان البشر يملكون الإحساس بالشرور ويتمكن منهم. هذا الشعور، هو الذي يجعل الملائكة يقولون إن الإنسان سوف يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ومع ذلك نرى أن هذا الخطر لا يقلل من مقام الإنسان وكرامته بل يبرزه كشرط أساسي لاستقلال الإنسان وحريته في التصرف.

وإبليس في رأي القرآن هو الوحيد الذي أبى السجود لآدم، واستكبر عليه، فكان نصيبه الطرد من مقام ملكوت الله، وجزاؤه العذاب يوم البعث.

{فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص، 73-85].

وإبليس هذا، الذي أصبح شيطانًا رجيمًا بعد امتناعه عن السجود لآدم، يقود جنود الشر في حياة الإنسان، ويجعل الصراع محتدمًا في العالم كلّه، وفي نفس الإنسان. والمنتصرون في المعركة، المخلصون من عباد الله، هم ثمار الكون الذي من أجلهم خُلِق، وأصبح ميدانًا لخلافتهم.

والإنسان صنع على يد الله وفيه روح الله.

{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [ص، 71-72]، **{قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}** [ص، 75]. فخلق الإنسان من جنس الأرض على يد الله، والنفخ فيه من روح الله، صورة واضحة عن الجوانب الوجودية الشاملة في الإنسان، والتي تمتدّ من الأرض إلى السماء، وهذا تعبير قوي أيضًا للكرامة التي يتمتع بها الإنسان.

وقد اعتبر الله الإنسان ذروة في الخلق، وقمة في الصنع **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}** [التين، 4-

6]، {**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**} [المؤمنون، 12-14].

الإسلام ودعوة الإنسان إلى المعرفة:

جعل الله للإنسان بين الموجودات كلّها، ميزة كبيرة تمكنه أن يتخلق بأخلاق الله، ولهذا خلقه حرًا يتمكن من العلم والمعرفة. ويحاول الإسلام في مواضيع عديدة في الكتاب والسنة التنبيه على هذه النقاط، ليرفع معنويات الإنسان ويشعره بمقامه المكرم، وبتفضيله على الكثير من الخلق (سبق وذكر في رقم 2 بعض الآيات). "تخلقوا بأخلاق الله" (حديث شريف)، {**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**} [الإسراء، 70].

ثم يعلن القرآن الكريم، بأن ما في الأرض وما حولها خلق للإنسان ومسخّر له:

{**خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**} [البقرة، 29].

{**وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**} [النحل، 12].

التعاليم الإسلامية تؤكد أن الله قريب جدًا للإنسان. وهو أقرب إليه من أيّ شيء، فعلى الإنسان أن يشعر بهذا القرب ويُقبل على الله لكي يجد قوته واعتزازه.

{**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**} [ق، 16].

{**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**} [البقرة، 186].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنفال، 24].

"قلب المؤمن عرش الرحمن" حديث شريف.

والتأكيد على قرب الله من الإنسان يرفع كثيرًا من معنوياته، ويسمو به عن الخوف والقلق والحزن. ويبعد عنه الكثير من الرذائل الخلقية، التي تنتج عن الضعف والخوف والطمع، كالكذب والنفاق والحرص.

ثم أن القرب لله يسهل الاكتساب منه والتخلق بأخلاقه. وقد جعل الإنسان في الآيات القرآنية عدل الكون بأجمعه، في الدلالة على خالق العالم وعظمته ومعرفته، فاعتُبِرَ وحده عديل الآفاق، الحديث الشريف يجعل منه العالم الأكبر: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت، 53].

أتزعم أنك جرم صغير	وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الذي	بأحرفه يظهر المضمر

والأمانة التي عجز الكون كلّه عن حملها، تمكن الإنسان منها:

{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [الأحزاب، 72-73].

ومهما كان تفسير الأمانة، دينًا أو معرفة أو ولاية أو شرف مسؤولية، مهما كان ذلك، فاختصاص حملها بالإنسان تكريم له وإشادة بمقامه العظيم.

مقام النبوة:

وأخيرًا فمقام النبوة مقام الرسالة الإلهية، مقام الخلة، مقام التكلّم مع الله، مقام الاصطفاء، مقام المحبة مع الله. مقام كلمة الله، مقامات خصصت بالعنصر البشري وهي أشرف ما يصل إليه مخلوق على الإطلاق.

{**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ**} [آل عمران، 164]،

{**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ**} [الأنعام، 9]،

وكثير غيرها من الآيات القرآنية الدالة على اصطفاء الله لرسله وعلى ما ذكرنا من الوصف.

هذه نبذة موجزة عن تعريف الإنسان المشرف، وتفسيره التكريمي عند الإسلام، فلندخل الآن في بعض التفاصيل والتعاليم، الموضوعة لصيانة كرامة الإنسان في بعض جوانب وجوده أو جميعها.

ثم يدخل الإسلام في تفاصيل وجود الإنسان، ويعتمد في تشريع أحكامه وسن قوانينه، على قاعدة تكريم الإنسان، ويعتبر هذا المبدأ، هدفًا رئيسيًا من أهداف الدين ومن غايات الرسالة.

وهذه نبذة من تلك التعاليم:

أ– فطرة الله:

الدين بصورة موجزة، فطرة الله التي فطر الناس عليها. والدين تعبير صحيح عن هذه الفطرة وإبراز لها إبرازًا غير متأثر بالعوامل المختلفة الخارجة عن طبيعة الإنسان.

{**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**} [الروم، 30].

والحديث الشريف الوارد في تفسير الآية الكريمة: "إن كلّ مولود يولد على الفطرة". فالدين بموجب هذه التعاليم، هو فطرة الإنسان. ولكن الإنسان نفسه لا يتمكن أن يعبِّر عنها، لأنه يتأثر بالعوامل التي تحيط به وينفعل بها، فشعوره بنفسه وتعبيره عن فطرته، يكسب لونًا خاصًا.

فالصحيح أن يعبّر عن هذه الفطرة الإنسانية مقام آخر، لا يتأثر بالعوامل الخارجة عن الإنسان. مقام هو فوق كلّ عامل وخالق كلّ مؤثر. مقام الله، الذي شرّع الدين واعتبر الفطرة

الإنسانية المخلوقة شريعته ورسالته.

ب– حفظ النفس والآخرين:

احترم الإسلام حياة الإنسان، واعتبر {**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**} [المائدة، 32]، ومن قتلها متعمدًا كأنه قتل الناس جميعًا وجزاؤه جهنم.

{**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**} [المائدة، 32].

ويشمل قتل النفس حسب التعاليم الإسلامية، قتل الجنين؛ ولم يسمح الإسلام بأن يتصرف الإنسان بنفسه بالانتحار اعتبارًا منه بأن حياته ملك له، وحرّم هذا تحريمًا قاطعًا فقال تعالى: {**وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**} [النساء، 29].

وجعل في قتل الخطأ دية لولي الدم وقد أصبح اليوم قانونًا عامًا، مع العلم أنه من التشريعات الإسلامية. ويبالغ الإسلام في وجوب حفظ نفس الآخرين، ويهدد الذين يهملون شؤون فقرائهم وأيتامهم، بحيث يودي إلى موت أحدهم فقرًا وعجزًا: {**وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**} [البقرة، 195]، {**وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ**} [البقرة، 272]، {**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا**} [النساء، 9]، "لأن أعولَ أهل بيت من المسلمين، فأُكسي عريهم وأُشبع جياعهم، أحبُّ عند الله من حجة وحجة إلى سبعين حجة"، الإمام الصادق (ع).

ج– التحرر الجوهري:

ونزّه الإسلام مقام الإنسان، فحرّم عليه عبادة الأصنام، وعبادة البشر وعبادة كلّ شخص أو شيء، واعتبر الإنسان أرفع من أن يعبد غير الله، ويخضع أمام محدود مثله. وفي كثير من التعاليم، نجد تحذيرًا ومنعًا من طلب الحاجة من غير الله.

د– قدسية الكلمة:

ووردت تعاليم كثيرة تعتمد على تكريم ما يتلفظ به الإنسان باعتباره جزءًا منه، ولذا أوجب صيانة القول، وجعل تسديده مفتاحًا لجلب كلّ خير ولدفع كلّ شر: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}** [الأحزاب، 70-71]. وقد فُسِّر تسديد القول في مواضع شتى من التعاليم أنها منع عن الكذب والاغتياب والتهمة والنميمة والبذاءة والفحش واللهو وحتى اللغو في القول.

أما الشهادة فقد أُعطيت عناية خاصة في الإسلام فقد وجب تحملها وأداؤها وبها تثبت الدعاوى وتستقر الحقوق وتتحقق العقوبات، ولكنها لا تُقبل إلا من الإنسان العدل. واعتبرت شهادة الزور من المعاصي الكبيرة ويستحق مؤديها عقوبة كبرى في بعض الأمور الجزائية.

والعهد وهو الالتزام اللفظي، محترم في الإسلام: {**إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً**} [الإسراء، 34].

والالتزامات اللفظية المتبادلة التي يعبّر عنها بالعقود، أوجب الوفاء بها، ونهى عن التخلف عنها: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ}** [المائدة، 1]، **{وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا}** [النساء، 21]. وحتى الوعد اللفظي، يعتبر محترمًا، وقد عبَّر عنه الحديث الشريف: "عدة المؤمن دينه". والالتزامات اللفظية التي تدخل ضمن العقود، تصبح واجبة الوفاء، ويعبّر عنها بالشروط: "المسلمون عند شروطهم إلا شرطًا حرّم حلالاً أو أحلَّ حرامًا" (حديث شريف).

والشروط هذه تعتبر وسيلة كافية لجعل العقود والمعاملات تنطبق على الحاجات المختلفة، وتؤدي المتطلبات المتزايدة من الالتزامات.

واللفظ يحترم في الإسلام إلى حدٍّ جُعِل سبيلًا للدخول في الدين، فيكفي الإدلاء بالشهادة لله بالوحدانية، ولمحمد بالرسالة، ليتحقق الانتماء إلى الإسلام، وقد نهى عن التنكر لمثل هذا الاعتراف: **{وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** [النساء، 94].

وقد جعل للكتابة ما للفظ في أكثر الأحيان، وأعتقد أن التأكيد الشديد الصادر عن الإسلام حول محاسبة الإنسان على كلّ كلمة يتلفظ بها، وأن الله يسجلها بواسطة كرام كاتبين. هذا التأكيد أيضًا من نوع الصيانة والتكريم. فالألفاظ الصادرة عن المكرمين، هي التي يعتنى بها دون سواها.

فالاهتمام بتسجيل كلمات الإنسان معناه الاهتمام بأمره والاعتراف بتكريمه: **{مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}** [ق، 18]، **{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}** [الانفطار، 10-12].

هـ- السعادة والعمل:

أما عمل الإنسان، فقد أُعطي له في تعاليم الإسلام بصورة صريحة، جوانب بالغة من الاهتمام والتكريم. ففي حقل السعادة والشقاء الحقيقيين الشخصيين، يتنكر الإسلام لكلّ عامل خارجي، ويجعل السبيل الوحيد إليهما العمل فقط: **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}** [الشمس، 7-10]، **{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}** [المدثر، 38].

وقد صرح القرآن الكريم بأن الفكرة التي كانت موجودة عند بعض الأمم بأنهم أبناء الله وأحباؤه، وكانت السبب الرئيسي في تقسيم المجتمعات، صرّح بخطأ هذه الفكرة وأنها تتنافى مع التوحيد الحقيقي، ولا تغني عن عمل الإنسان: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}** [الجمعة، 6-7].

وقد بلغ النبي محمد (ص) جدية المبدأ هذا نهايته، حينما قال مخاطبًا ابنته فاطمة: "يا فاطمة اعملي لنفسك فإني لا أغني عنك من الله شيئًا".

وفي حقل تكوين المجتمعات وصورها وتنظيماتها ومستوياتها ومشاكلها، يحمل الإسلام جميع هذه المسؤوليات على عاتق الإنسان فقط. فهو الذي يخلق المجتمعات، وعمله هو الذي يرسم الخطط، ويحدد المسؤوليات، ويسبب المشاكل والصعوبات. **{إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}** [الرعد، 11]، **{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** [الروم، 41].

"كيفما تكونوا يولَّ عليكم". (حديث شريف)

فعمل الإنسان هو القوة الوحيدة لتكوين التاريخ ولتحريكه وتطويره دون سواه، فلا دخل للعوامل الخارجة عن سعي الإنسان، في تكوين المجتمعات، وتحديد معالمها، كائنًا ما كان، بل الإنسان بعمله عن معرفة، أو عن جهل، أو عن إهمال، يختار طريقًا، ويفضل خطًّا، ويكون الأمر كما اختار هو لمجتمعه.

وتطور التاريخ أيضًا أو بالاصطلاح جبر التاريخ، ليس إلا تفاعلًا بين الإنسان والكون، فالإنسان يحاول حسب رغبته وحاجته، أن يطلع على العالم الذي يعيش فيه، فيقرأ منه سطرًا، فتؤثر هذه القراءة على حياته، وترفع وعيه، وتطور معيشته، وتغير معالم بيئته، ثم يقرأ سطرًا ثانيًا وهكذا...

فالبطل الوحيد على مسرح التاريخ هو الإنسان، يكوّنه ويطوره ويحركه، فيتطور هو ويتحرك ويتفاعل هكذا باستمرار. فعمل الإنسان هو صانع هذه الأحداث كلّها، ليس إلا، فهل تجدون فوق هذا المقام تكريمًا. في حقل الاقتصاد، يعتبر الإسلام لأول مرة في التاريخ أن عمل الإنسان هو أمر أساسي ذو قيمة يحرم اغتصابه ويضمن المتعدي للمعتدى عليه مثل المغتصب للأموال، ويعتبر المانع للأجير أجرته من المرتكبين لأكبر المعاصي، وأنه لا يشم رائحة الجنة.

ثم إذا لاحظنا مجموعة التعاليم الإسلامية في أبواب المعاملات في الفقه، نصل إلى نتائج مهمة، تثبت أن العمل هو العنصر الأول بين عناصر الإنتاج الثلاثة (العمل والآلة ورأس المال). وهذه النتائج قد تبدو غريبة إلا أنها حقيقة. ونحاول في هذه المحاضرة، أن نعرض هذه التعاليم وتلك النتائج عرضًا موجزًا:

1- حرّم الربا في الإسلام تحريمًا قاطعًا، والربا هو وضع ربح ثابت لرأس المال مصون من خطر الخسائر المحتملة.

2- إذا استعمل المال بواسطة غير مالكه في عقد يسمى في الفقه بالمضاربة، فالأرباح تنقسم بالنسبة المحدودة بين العامل ورأس المال، والعمل، أيّ سعي العامل المضارب، مصون من الخسائر، وتقتصر الخسائر على رأس المال.

3- لا يجوز اعتبار حصة من الأرباح للآلة كما هو صريح عبارات الفقهاء في باب المزارعة والمساقاة بل يمكن احتساب أجرة للآلة فقط.

4- تقويم العمل قد يكون بصورة أجرة عامل، وقد يتحقق بإشراك العامل في الأرباح مثل المضاربة.

من هذه الأحكام نستخرج أن عنصر العمل له في الفقه الإسلامي ثلاثة امتيازات: الأجر الثابت، والمشاركة في الأرباح، والصيانة من الخسائر.

أما عنصر رأس المال وعنصر الآلة، فلكلّ منها امتياز واحد، فرأس المال يشترك بالأرباح دون الصيانة ودون الأجر الثابت، والآلة لها الأجر الثابت دون المشاركة في الأرباح، وأعتقد أن هذا الموجز من العرض يقنع القارئ الكريم بوجهة نظر الإسلام إلى عمل الإنسان، وبمقدار تكريمه له منذ البدء، وقبل التطورات الحديثة.

الإسلام والعمل:

والإسلام في حقل آثار العمل ونتائجه المتنوعة، يعتبر أن العمل هو صيانة للعقيدة بعد أن كان من آثار العقيدة وبهذا يؤكد اهتمامه البالغ بالعمل: **{ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون}** [الروم، 10].

وأخيرًا، فالمسؤولية عن العمل صغيرة وكبيرة تؤكد مقام الإنسان العظيم في عمله، وتثبت تأثير أعماله، حتى الصغيرة منها في العالم، شعر بهذه التأثيرات أم لم يشعر: **{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}** [الزلزلة، 7-8]، **{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}** [يونس، 61].

وهذه المسؤولية، هي ضمانة كبرى لصيانة عمل الإنسان، والمحافظة عليه، وعدم هدره في الباطل، وعدم انحرافه عن الخط الإيجابي المفيد.

ويوحي إلى هذه الصيانة التعبير بالطيبات والخبائث عن الحلال والحرام، ويؤكد أن هذه المحاولة إنما هي لأجل تكريم الإنسان وتطهيره من الدنس والانحطاط، وفي الآيات القرآنية والسيرة المطهرة، نجد التعبير عن المحرمات بصورة توضح هذا التفسير: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [المائدة، 90].

والأفضل أن نؤكد بهذه المناسبة، أن الاعتماد على مبدأ الحلال والحرام الذي يتبعه الدين، إنما هو لأجل المحافظة على عدم ذوبان الإنسان وضياعه في العالم المادي المحيط به، فضلًا عن المصالح الثابتة في الواجبات والمحللات والمفاسد التي توجد في المحرمات.

فالإنسان إذا حاول أن يلبي حاجات جسده، أو ينجرف مع عواطفه دون تردد، فسوف يكون متأثرًا بالعالم لا مؤثرًا فيه، ولا يتمكن أن يكون قائدًا للكون ولا خليفة لله في الأرض، إذ يصبح منقادًا ذائبًا فيها.

أما رعاية الحلال والحرام، فتحتفظ باستقلال الإنسان، وتجعله مترفعًا عن الذوبان مصونًا من الضياع، حيث لا يكفي لتلبية الحاجة مجرد الحاجة، بل كونها حلالاً أيضًا.

وهذا المبدأ لا يتجاهل واقع الإنسان وحاجاته، ولا يعتبر مجرد التخلف عن تلبية الرغبات كمالاً. ولا يرى في محاربة النفس وإضعاف الجسد تقوية للروح ورياضة روحية، ولا يجد تناقضًا بين الجسم والروح. تلك المبادئ التي تعتمدها فرق التصوف، وبعض المبادئ الأخرى.

ونضيف هنا اهتمام الإسلام بأمر النظافة وجعلها من الإيمان. وهنالك مئات الأحاديث واردة في هذا الشأن ومستقاة من التعاليم الإسلامية؛ والنظافة ركن من كرامة الإنسان.

الرأي والعقيدة:

أ- أما الرأي والعقيدة، فهما ثمرة تفكير الإنسان، ونتيجة الجانب الأشرف من وجوده. فقد أكرمهما الإسلام وحاول أن يحافظ على حريتهما. فترك أمر التفكير والاجتهاد لمعرفة العقيدة الصحيحة، تركها للإنسان وأعلن أن العقيدة التي لا ترتكز على مبادئ التفكير لا اعتبار لها، ولا يُعذر الإنسان إلا إذا لم يتمكن من الوصول إلى العقيدة الصحيحة بالرغم من التفكير والسعي: **{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}** [البقرة، 256].

ب- والنية الحسنة اعتبرت روح العبادة "وإن لكلّ امرئ ما نوى" (حديث شريف)، ولكن الإنسان لا يؤاخذ بالنيات والأفكار مهما كانت ما لم يتبعها عمل أو قول. ففي الحديث النبوي الشريف أن الله رفع عن أمته تسعة أشياء... منها الوسوسة في التفكر في الخلق، والحسد ما لم ينطق الإنسان بشفتيه.

ج- ومن أجمل ما يثيره الإسلام ويحافظ عليه تكريمًا للإنسان ونشاطاته المتنوعة، هو دراسة الجهد الضائع. فما أكثر الطاقات التي يبذلها الإنسان في سبيل الخير. فيجاهد باذلاً ماله ووقته وخدماته ونفسه، ولكنه لا يتوصل إلى النتائج المطلوبة لعوارض بدت أو موانع حالت دون وصوله فيسقط في الطريق فينساه التاريخ لسبب ليس هو مسؤولاً عنه.

وما أكثر الطاقات التي تصرف وتحول الأخطاء دون إنتاجها ونجاحها. هذه الجهود الضائعة وغيرها من الإحساسات الداخلية التي تصرف لأجل أداء الرسالة المقدسة دون أن تظهر، كلّ هذه الجهود مدروسة في الإسلام، محفوظة حسب رأيه غير مهدورة ولا متنكر لها: **{وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللهِ}** [النساء، 100].

"للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد"، قاعدة فقهية معروفة.

يتابع الإسلام مساعيه لتكريم الإنسان وصيانته أمام الانحطاط والانحراف. فيقترح إيجاد مجتمع إنساني يتناسب مع واقع الإنسان ويعترف بجميع جوانب وجوده ويهيئ الجو الملائم لنمو مواهبه وتربية كفاءاته.

هذه الملاحظة تبدو ضرورية إذا لاحظنا تأثر الإنسان بمجتمعه وانفعالاته الواضحة في أعماله وأخلاقه وإيمانه بالبيئة التي يعيش فيها.

وحيث إن الهدف من تكوّن هذا المجتمع هو الإنسان والعنصر الأساس لإيجاده هو الإنسان أيضًا، فلهذا يجب النظر إلى واقع الإنسان والتخطيط على ضوء هذا الواقع.

إن هذا المجتمع لا يكون شخصانيًا Individualiste حيث إن هذا النوع من المجتمعات يتنكر لجانب أساسي من وجود الإنسان وهو الجانب الاجتماعي من حياته. ولهذا سرعان ما ينمو الجانب السلبي، النابع من النزعات الشريرة، المعبّر عنه في الاصطلاح بالأنانية والتي يعبّر عنها القرآن الكريم بالنفس الأمارة بالسوء. ينمو هذا الجانب في الأفراد حيث لا صيانة ولا تنسيق، فتصطدم الأنانيات وتضطرب الحياة الاجتماعية، ويتغلب القوي ويستغلّ الضعيف ثم يتحول الضعيف إلى آلة فيفقد المجتمع البشري قسمًا من طاقاته. وبعد ذلك يتحول القوي أيضًا إلى آلة لمصالحه الأنانية.

والقوانين التي توضع في هذه الحالة تعكس الحالة القائمة ولا تخدم الحقيقة التي يجب رعايتها صونًا للإنسان، فيأخذ المجتمع الذي يتكون في هذا الوقت طابع الصراع الظالم وسيطرة القوي على الضعيف وسيطرة المصالح الخاصة على الجميع.

وهذا المجتمع لا يمكن أيضًا أن يكون اجتماعيًا Socialiste إذ إن المجتمع الذي يتكون على هذا الأساس يتجاهل الجانب الآخر من وجود الإنسان، أيّ الحرية والاستقلال، ويعتبر الفرد جزءًا للمجموعة نظير الأجزاء الطبيعية، وفي مثل هذه الحالة يقتصر الأمر على رعاية مصالح المجموعة ويخطط لها فقط.

والطابع الذي يأخذه المجتمع في هذا التنظيم ينعكس على الأفراد بصورة عفوية فيفقد الإنسان صورته الأصلية.

ولا تنمو مواهبه الطبيعية المتنوعة فيحرم المجتمع من كثير من طاقاته وكفاءات أفراده. ثم تنعكس صورة الأفراد على المجتمع أيضًا طبقًا لقانون تفاعل الأفراد مع المجتمع من كلا الطرفين، فيحصل تناقض دائم في سير المجتمع وتقلب مستمر غير إيجابي في حياة الإنسان.

الإنسان وتكوين المجتمع:

والحقيقة أن المجتمع الذي يقترحه الإسلام هو المجتمع الذي يعترف بوجود الفرد بجميع جوانبه الشخصية والاجتماعية.

ولتوضيح هذا البحث نلفت نظر القارئ الكريم إلى ما ورد في أوائل هذه المحاضرة من وجود فطرة الخير في الإنسان ونزعة الشر فيه والصراع النفسي الذي يشكل الحرية والاستقلال في الإنسان. ثم نقول إن ما يصدر عن الإنسان من الأعمال الإيجابية الخيرة هي التي لا تتعارض مع حقوق الآخرين وتنسجم مع مصالح المجتمع والمعبّر عنها في الإسلام بأوامر القلب السليم أو النفس المطمئنة. أما الأعمال التي تتعارض مع حقوق الآخرين فهي رغبات النفس الأمارة بالسوء، حسب التعبير الديني.

ولا شك أن تحديد هذين النوعين من الأعمال يحتاج إلى تحديد مفهوم الحق، والحق جزء من التنظيم العام المقترح للمجتمع، وأثر ثابت ينبع من الأحكام العامة اللازم مراعاتها من صلات

الأفراد بعضها مع بعض. وبهذا التفسير الموجز نتمكن من تصور حرية الفرد في خطّ موازٍ لحرية الآخرين ومن تصور مصالح الأفراد منسجمة مع المصالح الاجتماعية.

ومن ناحية ثانية، نتمكن من الاحتفاظ بجميع طاقات الفرد الإيجابية دون طغيان أو تعدٍ أو حتى صراع بين الأفراد والطبقات، بل أن الأمر يتحول إلى سباق بين أفراد المجتمع مع قدسية حقوق الآخرين: **{وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}** [آل عمران، 133]، **{فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ}** [المائدة، 48].

والنشاطات المتنوعة الصادرة عن الأفراد تلتقي بإيجابية فيحصل التعاون والتكافل على مختلف الألوان والأشكال.

ومن التعاليم الإسلامية المعتمدة على بدء تكريم الإنسان، أصل قداسة حاجات الإنسان كلّها. فالإسلام يعترف بجميع هذه الحاجات ويعتبرها نعم الله ويضع أحكامًا لتوجيه هذه الرغبات، ويعترف أن السعي لتلبية هذه الرغبات، بالصورة المشروعة عبادة. فالتجارة والزراعة والبناء عبادات، والكدّ في طلب الرزق الحلال جهاد، والاتقان في العمل عبادة، والزواج عبادة، ومن رغب عنه اعتبره نبي الإسلام أنه ليس منه. وقد جعل النبي في وصاياه لأبي ذرّ الغفاري قاعدة تدلّ على أن المسلم يتمكن من أن يكون في عبادة دائمة حتى في حال النوم والأكل، ولا يرحب الإسلام بترك تلبية الحاجات ويتجاهلها. وفي الحديث الشريف اعتبر الذين يتفرغون للصلاة ويتركون السعي لطلب الرزق ممن لا يستجاب دعاؤهم، وفضَّل عليهم الذين ينفقون عليهم.

الإسلام والمجتمع:

وفي عداد هذه التعاليم نجد محاولات واسعة للمحافظة على تنسيق جميع جوانب وجود الإنسان، وعدم طغيان ناحية على سائر النواحي.

وأبرز أنواع هذه التعاليم ما ورد في الإسلام بشأن المرأة من السعي لعدم طغيان جانب الأنوثة على سائر جوانب وجودها. ولهذه الغاية منعها من العمل للإثارة والإغراء، لكي لا تذوب إنسانية المرأة في أنوثتها، وعليه يجب ألا يُنظر إليها ولا تنظر هي لنفسها من هذا الجانب فقط، حتى لا ينخفض مستواها وتفقد جوانب أساسية من وجودها.

ومن الحلقات البارزة في سلسلة التعاليم هذه الدعوة إلى تكريم الآخرين. فالواجب على كلّ مسلم احترام الآخرين في أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم، ويحرم عليه التعدي العملي والقولي بالنسبة إليهم.

ويبدأ الإسلام بمحاولة صيانة الإنسان قبل ولادته فيأمر الراغب في الزواج باختيار الأم الصالحة لأولاده: "اختاروا لنطفكم" (حديث شريف). ثم يتابع هذه الرعاية طوال مدة الحمل وحالة الوضع والرضاعة وأيام الصغر وأدوار التربية. ونجد مئات من الأحكام في هذه الحقول معتمدة على مبدأ تكريم الإنسان.

ويبدو للبعض أن الإسلام في قرآنه وحديثه في بعض الأحيان يحاول التخفيف من قيمة الإنسان، فنجد في القرآن مثلًا آيات كثيرة تؤكد أن أصل الإنسان من تراب أو طين أو ماء مهين، أو من نطفة أو: **{مِن مَّاء دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}** [الطارق، 6-7]، ونقرأ في الحديث أن مبدأ الإنسان أمر حقير ونهاية الإنسان وما بعد موته لا يشرِّفه، وأمثال ذلك من التعابير.

ولكن الحقيقة أن الإسلام يحاول أن يصون الإنسان من الغرور والانحراف وخاصة في حالات الانتصار: **{كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى}** [العلق، 6-7]، يفتتن كثيرًا بأمواله وأولاده ومجده فيقع في خطر نفساني مهلك.

ولعلاج هذا المرض يحاول الإسلام إعطاءه نصائح بألفاظ وتعابير مختلفة يبين له فيها أن تكريم الله للإنسان وجعله موجودًا سويًا فاضلًا ليس إلا من إرادة الله، في خلق هذا الموجود من أشياء لا تختلف عن بقية الخلق. فالكرامة أمانة من الله وإعارة منه للإنسان، فلا يحق له أن يغترّ بها، فجميع ما يملكه الإنسان هو أمانة الله بيده وعليه أن يؤدي الأمانة بصدق وإخلاص: **{وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ}** [الحديد، 7].

بسم الله الرحمن الرحيم

اختير لي في هذه السلسلة من المحاضرات موضوع "الإسلام" والموضوع في حدّ ذاته واسع جدًّا. ثم إن اعتبار هذا الموضوع حلقة من مصادر الثقافة في لبنان يضيف جانبًا جديدًا على موضوع المحاضرة، جانبًا ثقافيًا تاريخيًا يشمل حقلًا مترامي الأطراف، متنوع الجوانب، شمول ثقافة لبنان وتنوعها.

فالبحث عن تأثير الإسلام في الثقافة بلبنان، يمتدّ منذ أيام الزحف الإسلامي نحو هذه المنطقة واستقرار الحكومات والأنظمة الإسلامية في دمشق وغيرها، إلى جولات الصحابي الجليل أبي ذرّ الغفاري في جبال لبنان، والتأثيرات والتفاعلات العامة لتعميم الدعوة الإسلامية في جميع هذه المناطق طيلة القرون المتتالية. ومن مشاركة علماء لبنان في توسيع الثقافة والحضارة ونقلها إلى أقطار العالم، إلى الإنتاج الضخم من الكتب والمحاضرات، الذي نجده عند علماء جبل عامل وبعلبك وبيروت وطرابلس.

أضف إلى ذلك انفعال اللغة العربية بصورة عامة بالتعاليم الإسلامية، بالقرآن الكريم بالذات، هذا وغيره يتجاوز إمكانية البحث عنه في محاضرة واحدة. ثم إن مستوى الداعية والمحاضرين والمستمعين يجعل المحاضرة جامعية يطالب صاحبها ببحث موضوعي جديد.

هذه العناصر جعلتني أحتار في انتخاب الجانب الذي يكون الحديث عنه ملائمًا. وفرضت عليّ تأخيرًا في تقديم المحاضرة ربما خرجت به عن الطريقة المتبعة في هذه السلسلة.

فحاولتُ أخيرًا أن أفسّر العنوان العام لسلسلة المحاضرات وأوسِّع مدلوله فأختار البحث عن أحد مصادر الثقافة في لبنان لا عن تأثير هذه المصادر في ثقافتنا اللبنانية كما هو المطلوب.

وحثّني على هذه المحاولة تلاقي الأفكار والآراء الشرقية والغربية في لبنان حول كلّ شيء وحول الإسلام مما قد يوجب الغموض في النقاط الأساسية من الإسلام، تلك النقاط التي أخذت القسط الأكبر من دراسات علماء كبار أمثال ماسيه ولامنس ودرمينجهام وماسينيون وأمثالهم.

ويؤكد لكم قبول العذر أني أحاول عدم الخروج عن اختصاصي بصورة عامة، وفي هذا الحقل بصورة خاصة، وأرجو أن أوفّق لأداء المهمة مع بذل جهدي المقلّ وتقديمه المتواضع.

طريقة البحث في المسائل الدينية

قلت إن تلاقي الأفكار ودراسات هؤلاء العلماء جعلت الغموض يكتنف بعض النقاط في الإسلام. ولكني ما أردت اتهام هؤلاء الأفذاذ الذين صرفوا عمرهم في دراسة الشرق والإسلام ولا قصدتُ التقليل من قيمة دراساتهم الواسعة العميقة وخدماتهم الكبرى للثقافة العالمية.

بل أريد أن أقول إن المبادئ الدينية والحقائق والأفكار المذهبية لا يمكن أن تعبّر عنها ألفاظ وعبارات محضة، ولا تدرس من خلال مطالعة بعض الكتب والمقالات التي تبحث عنها. ذلك أن لكلّ علم وكلّ عرف مصطلحاته الخاصة التي لا تعرف حقائقها إلّا بدراسة واسعة في حقول العلم المذكور أو ممارسة ذلك العرف ممارسة تامة، وهي مصطلحات تسمى حقائق عرفية عامة أو خاصة. والفقهاء يعبرون عنها بالحقائق الشرعية أو الحقائق المتشرّعة، أما المعاني والأفكار الدينية فيضاف إليها أنها تقارن سلسلة من الخواطر الروحية والحياة المعنوية والأحداث التاريخية التي تنتقل بالسيرة عبر الأجيال وترتبط بسلسلة طويلة من العقائد والتربية الدينية والعشرة الطويلة مع أبطال الفكرة ومؤسسيها.

هذه الميزة التي تشبه إلى حدّ ما ميزات الأدب والفن تجعل من الصعب جدًا دراسة المبادئ والأفكار الدينية بعمق والحكم لها أو عليها.

بل يجب على الباحث أن يطّلع عليها وعلى جميع جوانبها وعلى تاريخها، ويلاحظ الأحداث والنصوص والقرائن ثم يحاول أن يناقش أصحاب المبدأ ويستوضح الملابسات والمتشابهات لكي يتمكن من الخوض فيها والإحاطة بها.

وأعتقد أن مراجعة كتب أصول الفقه "مباحث الألفاظ" تؤكد ما ذكر. لهذا، فإنّا نعتقد أن أفضل طريقة لدراسة هذه المبادئ والأفكار هي الطريقة المتبعة في هذه المحاضرات وهي طريقة "الندوة اللبنانية" في محاضراتها من إناطة البحث بأصحاب المبادئ ومطالبتهم بموضوعية البحث والدراسة.

أما النقاط التي أحاول البحث عنها في هذه المحاضرة فهي:

1) الأصالة أو ذاتية الإسلام.

2) الروحية في الإسلام وقوتها أو ضعفها.

3) اهتمام الإسلام بشؤون المجتمع وعدم الاكتفاء بالإيمان والأخلاق ثم حلّ مشكلة التطور.

1) الأصالة

تحت هذا العنوان نناقش ما ملأ كتب المستشرقين والكثيرين من الباحثين الجدد حيث أكدوا أن الإسلام أخذ الكثير الكثير من عقائد الأديان السماوية الأخرى التي كانت شائعة في أوساط العالم العربي حين كانت معبرًا لرحلات النبي محمد التجارية قبل ظهور الإسلام. وتأثر الإسلام كذلك بالأفكار والعادات الوثنية السائدة في الجزيرة وعند الفرس والروم الذين كانوا على اتصال تجاري وسياسي مع العرب في مكّة، والعادات السومرية أو الصابئية أثّرت في العبادات والسير الإسلامية. وأفضل ألّا أنقل نصوص ما قالوا، حذرًا من إطالة الكلام.

رأي الإسلام في الأديان:

وقبل أن ندرس مدى صحة هذا الكلام يجب أن نلاحظ منطق الإسلام حول الأديان السماوية. فالقرآن يعلن أن رسالة محمد هي العقد الأخير من سلسلة الأديان الإلهية، وأن محمدًا هو خاتم الأنبياء، مؤمن بهم ومصدّق بأنهم رسل ربه:

{قل ما كنت بدعًا من الرسل} [الأحقاف، 9]،

{آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله} [البقرة، 285].

والقرآن يؤكد أيضًا أن دين الله واحد ويسميه الإسلام، ويعتبر أن جميع الأنبياء كانوا يبشرون به وقد جعل الله لكلّ منهم شرعة ومنهاجًا:

{**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**} [الشورى، 13].

وفي كثير من الآيات القرآنية نجد القرآن ينقل عقائد وأحكامًا وقصصًا تربوية عن الرسالات السماوية ويعتمد عليها. إذا لاحظنا هذا المنطق فلا نجد أيّة غرابة أو أيّ مانع من بعض التشابه في العقائد والأحكام والأخلاق الإسلامية مع الأديان السماوية الأخرى.

الطابع المميز للإسلام

ولكننا نقول إن الإسلام مع ذلك له طابع خاص في جميع حقوله وتعاليمه، يعطيه ذاتية خاصة ويميزه عما عداه من الأديان ومن العقائد الأخرى.

والباحث في مختلف حقول الإسلام يمكنه أن يكتشف هذا الطابع بوضوح، هذا الطابع الذي يعبّر عنه بالتوحيد فيسمي الإسلام ب- "دين التوحيد".

فكلمة الإسلام حسب المصطلح القرآني هو التسليم لله رب العالمين الذي: **{له أسلم من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا وإليه يرجعون}** [آل عمران، 83].

فالإسلام إذًا هو الانضمام والانخراط في سلك جميع من في السماوات والأرض والاتحاد معهم في المبدأ والسير والمرجع أزليًا أبديًا.

والإسلام أيضًا حسب التفسير القرآني هو السجود الإرادي من الإنسان وتسبيحه وصلاته والتحاقه بذلك بركب الكائنات الواحد، الذي هو بمجموع أجزائه ساجد ومسبح ومصلّ لله الواحد في محراب الكون الواحد: **{ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس}** [الحج، 18]،

{يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير} [التغابن، 1]،

{ويسبح الرعد بحمده} [الرعد، 13]،

{تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإنْ من شيء إلّا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم} [الإسراء، 44]،

{**ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كلّ قد علم صلاته وتسبيحه**} [النور، 41].

والمجتمع، كالجسد الواحد في رأي الإسلام، "إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأجزاء بالسهر والحمى" (حديث شريف). والإنسان، أيضًا في رأي الإسلام، موجود واحد بجسمه وروحه وحدة متكاملة متفاعلة.

وفي حقل العقيدة والإيمان أن الله هو: **{الأول والآخر والظاهر والباطن}** [الحديد، 3]، والمبدأ والمنتهى: **{إنا لله وإنا إليه راجعون}** [البقرة، 156].

والغاية في السير والعبادة والجهاد هو الله الواحد: {**وما أمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين**} [البينة، 5]، {**ويكون الدين كلّه لله**} [الأنفال، 39].

وفي الأنظمة الاجتماعية والمالية والمدنية والأخلاقية نجد محاولات واضحة لجعلها على قاعدة واحدة تقرب بين الأفراد حتى تجعل من كلّ واحد بعضًا من الكلّ، لا فردًا من الكليّ على حدّ التعبير المنطقي.

وقد عبَّر القرآن عن الأموال والتعهدات والقوى المادية والمعنوية للأفراد المختلفة أنها "لكم"، فأضافها إلى المجموع تكريسًا لهذه التربية وتأكيدًا لهذه القاعدة.

وتأثر الفن الإسلامي بهذا الطابع المميز فأصبح طابعه الانحناء الذي يشكل خطًّا واحدًا على اختلاف أشكاله وأنواعه (Arabesque).

وبكلمة موجزة، إن الطابع المميز للإسلام هو الوحدة في الإيمان والتشريع والفن والتفسيرات. فلنعد الآن إلى ذكر بعض التفاصيل خاصة حول ما ورد في عبارات الأستاذ ماسيه لكي نرى الأصالة الذاتية بوضوح أكثر.

فالله هو الذات الواحد الأحد، {**ليس كمثله شيء**} [الشورى، 11]، {**له الأسماء الحسنى**} [طه، 8]، والأمثال العليا والصفات الكمالية كلّها، يتعالى عن كلّ نقص وحاجة فهو الصمد:

{**لم يلد ولم يولد**} [الإخلاص، 3]، مجرّد من الانتساب الخاصّ إلى كلّ شيء أو إلى كلّ فرد أو إلى كلّ ظاهرة. فالعالم بأجمعه والبشر بجميع أفراده والأحداث كلّها أمامه سواء، هو الخالق والمستمرّ في خلقه ولا وجود ولا بقاء للموجودات دون إرادته ودون تصرفه، وهو عالم الغيب والشهادة لا يغرب عنه مثقال ذرة.

ويرى الباحث أن هذا الكمال المطلق الذي يتجلى في تفسير الله يعكس على الخلق جوانب تربوية عديدة ويبعده عن مجرد فكرة تجريدية وصورة قلبية أو طقوس مذهبية.

فالتعمق في التجرد والابتعاد عن الشبه والتعالي عن أيّ ربط خاصّ بشيء، ينزع صفة القداسة الذاتية عن كلّ شيء، ويحرر الإنسان من أيّ قيد عقلي أو عملي أو عاطفي أو اجتماعي فيجعل منه، وهو عبد لله، الحرّ المنطلق في جميع شؤون الحياة لا يقف أمامه مانع، وينعكس الكمال الإلهي على الكون كلّه، وعلى الإنسان بالذات فيرى الكون والإنسان في أحسن صورة وأكمل تقويم وأدق تنظيم.

والإحاطة القيومية، على حدّ التعبير القرآني، تربط بين التجرد المطلق الإلهي وبين أن يكون الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد وأن تكون: {**الأرض جميعًا قبضته**} [الزمر، 67]، {**والسموات مطويات بيمينه**} [الزمر، 67]، فالأبصار لا تدركه ولكنه يدرك الأبصار.

إن الله بعيد عن إدراك العقول "كلّما ميزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه فهو مخلوق لكم مردود إليكم" (حديث شريف). ومع ذلك: {**هو معكم أين ما كنتم**} [الحديد، 4]، حيث إنه "مع كلّ شيء لا بالمقارنة وغير كلّ شيء لا بالمزايلة" (نهج البلاغة). وهذه الإحاطة تشعر الإنسان بالاطمئنان بالقوة وتزيل عنه الوحشة وتوحي إليه بالمسؤولية. وهكذا نرى تأثير الفكرة العميقة في الحياة الإنسانية وابتعادها عن التجريد: {**ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله**} [البقرة، 115]، "وقلب المؤمن عرش الرحمن" (حديث شريف)، و"أنا عند المنكسرة قلوبهم" (حديث

شريف)، و"من عاد مريضًا فقد عادني في عرشي" (حديث شريف)، و"المحسن يلمس يد الله حال إحسانه" (حديث شريف).

هكذا يرى الباحث صورة جديدة لله في الإسلام تختلف عن جميع الصور الأخرى، وإذا كان يمكننا تلخيص الإيمان المسيحي بالله بكلمة موجزة هي أن "الله هو المحبة" يمكن تلخيص الإيمان الإسلامي بالله بأن: {**الله هو الحقّ**} [الحج، 6] بما لكلمة الحقّ من معنى.

ولقد أجاد مترجمو القرآن المتأخرون حيث احتفظوا بكلمة الله من دون تعبير آخر مشابه في سائر اللغات.

الملائكة

وهي فكرة قديمة قِدَم الأديان لكنها بصورة عامة، في الإسلام وفي الأديان كلّها، تختلف عما ورد في آراء الفلاسفة باسم أرباب الأنواع وباسم المثل الأفلاطونية أو الأنوار الأسفهبدية.

وقد نوقش موضوع الملائكة في الإسلام في كتب الباحثين من الشرق والغرب مناقشات مفصلة، وساعدهم على هذه المناقشات كلمات علماء الكلام والسير من الأساطير والتخرصات حول الملائكة وحول المقربين منهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل بالذات؛ ورأى بعض المستشرقين الكبار خلال مقارناتهم أن هذه الفكرة في الإسلام دخيلة، واعتمدوا لذلك صيغ هذه الأسماء وغير ذلك.

ونحن حينما نحاول البحث في ذاتية الفكرة الإسلامية عن الملائكة نعيد إلى ذاكرة المستمعين ما ورد في أول المحاضرة حول تصديق الإسلام بالأديان السماوية السابقة وبما جاء فيها ثم نقول:

إن ما ورد في كلمات علماء المسلمين في الكلام والسيرة والفقه أيضًا كلّه يحمّل قائليها المسؤوليات. أما مصادر الشريعة الإسلامية فخالية من هذه التفاصيل، ولا تهتم إلّا بالإيمان بالملائكة وبالجانب التربوي منه الذي سوف نبحث فيه؛ أما حقيقة الملائكة وتفاصيلها وتجردها وماديتها فلا تجدها في المصادر الأصلية ولهذا فالاعتقاد بهذه التفاصيل وبغيرها لا يعدّ من الإيمان الإسلامي الذي يدين به المسلم، بل كلّ ما يجب أن يؤمن به المسلم هو وجود ملائكة الله فقط كما يجب أن يؤمن بالله وبكتبه وبرسله، وأن الله جعل من الملائكة رسلًا، وأنهم يسبحون بحمد ربهم ويقدسونه في الليل

والنهار: {**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**} [التحريم، 6]. يؤمن المسلم بهذا كلّه لأن القرآن نصّ عليه وأخبر عنه. أما الجانب العلمي في فكرة الملائكة فلا أعرف أيّ مبدأ أو دين غير الإسلام تعرض له ما عدا الذي ورد في إنجيل متى في الإصحاح الأول وفي أعمال الرسل بصورة موجزة.

هذا الجانب تشير إليه بعض الآيات القرآنية التي تعبِّر عن الملائكة بـ- {**المدبّرات أمرا**} [النازعات، 5]، والتي تسند كثيرًا من الأحداث الكبار في الدنيا والآخرة إلى الملائكة، ومن هذه الآيات: {**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزَّل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون* نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة**} [فصلت، 30-31].

تتلخّص الفكرة في أن الملائكة هم الذين يدبّرون القوى الكونية الظاهرة والخفية بأمر من الله، وأنهم يطيعون الله ولا يتخلفون عن أمره. فمن يسلك سبيل الحقّ تواكبه الملائكة قائلين له: {**نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة**} [فصلت، 31]. فالسالك ليس منفردًا في طريق الحقّ بل القوى الكونية التي هي طوع يد الملائكة تسانده وتقويه وترفع وحشته.

إن المؤمن السالك في سبيل الحقّ والعدل لا يشعر بالوحدة والوحشة، بل يشعر بمواكبة الكون وتأييده لقواه فيطمئن بأنه المنتصر حيث: {**إن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير**} [التحريم، 4].

وهذا الشعور هو ضروري بالنسبة لحملة الرسالات وأصحاب المبادئ الذين يحاولون التأسيس وإعادة بناء الإنسان ومجتمعه.

الشيطان

والحديث عن الشيطان، مَلَك الشرور، يرتبط بالحديث عن الملائكة، حيث إنه كان مخلوقًا معهم، حسب وصف القرآن، قبل خلق آدم، مطيعًا ساجدًا مسبحًا لله ثم عصاه حينما أمره بالسجود لآدم فرفض استكبارًا واعتزازًا بعنصره، ثم أُمْهِلَ إلى يوم الدين وهو يقود حملة الإغواء وتضليل البشر بالتعاون مع جنوده قوى الشرّ.

ويختلف هذا التفسير اختلافًا كليًّا عن معنى أهريمان عند الفرس القدامى، حيث إنه خالق الشرور وهو في صراع دائم على رأيهم، مع آهورمزدا إله الخير.

يختلف تفسير الشيطان المخلوق عن أهريمان الخلق تمامًا مبدأً وأثرًا؛ حيث إن مشكلة الصراع النفسي التي يعانيها الإنسان المؤمن بإلهي الخير والشرّ هي مشكلة كبيرة حيث إنه يرى الكون كلّه والمجتمع والإنسان كلّ منهما يتبعض. وهذا الإنسان الذي يشعر بالازدواجية في وجوده وفي مجتمعه وفي مبدئه ومصيره ويعيش في صراع أبدي ذاتًا وسلوكًا وزمانًا لهو إنسان محطم ضعيف حقًّا.

ويختلف معنى الشيطان في الإسلام عن معنى ملاك جهنم ورئيس هذا العالم وإله الدنيا في سائر التفسيرات. وأخيرًا يتفاوت مفهومنا عن الشيطان عن رأي البعض من أنه الموحد الأكبر الذي امتنع عن السجود لغير الله وصار عندهم رأس القديسين وقائد الموحدين.

أما أصالة الفكر الديني حول الشيطان فإنها تبلغ القمة في القرآن من الناحية التربوية، فإن الشيطان اسمه الأصلي إبليس الذي كان من المقربين عند الله، فطُرِدَ من مقام القرب لأجل معصية صدرت عنه استكبارًا فسُمي الشيطان. فانحرافه وطرده وشقاؤه لعصيانه أوامر ربه، لا لذاتية الشقاء فيه ولا لعفوية الطرد وإبعاده عن مقام القرب.

ومن جهة ثانية، فإن الشيطان كذات يمثل وحدة قوى الشرّ وتكتلها أمام قوى الخير في صراع أزليّ أبديّ بين الحقّ والباطل مهما كان نوعهما أو وصفهما أو قدرهما.

وأهمّ النواحي التربوية في إعطاء فكرة الشيطان واستلامه مهمة الإغواء والتضليل مع جنوده التي منها النفس الأمّارة بالسوء، أهم هذه النواحي هي تكريس اختيار الإنسان والتأكيد على أنه مخيَّر بين الخير والشرّ، لا مسيَّر لا يهتدي إلّا إلى دوره الكوني المقرر له.

وقد أوضح القرآن الكريم هذه الناحية في لوحة تاريخية رائعة أوضح فيها كيفية الخلق في سورة البقرة الآيات 30 إلى 38، وبموجب هذه الآيات أراد الله أن يجعل في الأرض خليفة لا آلة مسيَّرة ولا شبه آلة. بل أراد خلق موجود يتصرف حسب إرادته ويمارس حريته، حيث إن حرية التصرف لا تتم إلّا مع وجود نزعتي الخير والشرّ في الإنسان، وإلّا مع وجود طريقي الخير والشرّ في الأرض. خلق الله الإنسان بهذه الخصائص، ثمّ علمه الأسماء وجعله مستعدًا لمعرفة حقائق الكون

والقوى الكونية، متمكنًا من الإحاطة بها عن طريق معرفتها. ثمّ أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم فخضعوا وسجدوا له بأمر الله، وخضوعهم للإنسان يستلزم مطاوعة القوى الكونية التي هي بيد الملائكة له. فأصبح آدم سيد الكون، خليفة الله في الأرض. وامتنع إبليس من السجود لآدم، وطُرِدَ من مقام المقربين، وأُمْهِلَ حسب طلبه إلى يوم القيامة، وبدأ هو وجنوده بإغواء البشر وأصبحوا من الدعاة إلى طريق الشرّ يساندون النزعة الشريرة في الإنسان.

فالكون ميدان للسير في الخطّ المستقيم وللانحراف والضلال. والإنسان أمام مفترق الطريقين يسمع صوت الله بلسان عقله وبلسان ضميره وبلسان أنبياء الله وبالطرق الأخرى للهداية، وصوت الشيطان بلسان نفسه الأمارة بالسوء وبلسان عناصر السوء والفساد من البشر وغيرهم. يستمع الإنسان في حياته إلى النداءَين فيجيب بملء إرادته لنداء الخير أو لنداء الشرّ. وهكذا نرى أن الشيطان في مفهومه الإسلامي يقوم بدور بارز في تعميق التخير الإنساني: **{ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة}** [الأنفال، 42].

النبي

والنبي عبد من عباد الله له ما لهم من الحالات والرغبات، ويشعر بما يشعرون من الصراع النفسي بين الخير والشرّ. لكنّه يتّبع في القول والفعل ومعاشرة الناس ما يُوحى إليه، وإن لم يكن مطابقًا لمراضيهم، لا ينحرف ولا ينطق عن الهوى، ولا يساير ولا يجامل رغبات الناس ولا يزن الأمور بالموازين الشايعة.

إن النبي عبد من عباد الله لا ملاك ولا نصف إله. يعيش ويهرم ويموت ويُحشر ويحاسب يوم القيامة. وبذلك يصبح قدوة صالحة للناس، إمامًا لهم، سندًا حيًّا لواقعية رسالته، مثبتًا إمكانية تطبيق تعاليمه الدينية.

وقد ورد في القرآن الكريم في سيرة الأنبياء عامة، وفي سيرة النبي محمد خاصة، دلائل كثيرة على ذلك، حيث وجّه إليهم النقد والتشجيع والتأييد والتهديد والنصيحة والعتاب على بعض التصرفات. والنبي مع ذلك يتمتع بعناية الله ووحيه وتسديده، وبذلك يصبح قوله وعمله ورضاه عن عمل الآخرين هي سيرة وأسوة حسنة للأمة.

فالصفة المميزة للنبي في رأي الإسلام كونه عبدًا ورسولًا في نفس الوقت، وبذلك تبدو بوضوح أصالة الفكرة وعدم انفعالها بالعاطفة الطبقية كما يقول برتراند راسل حيث يتهم الإسلام بذلك نظرًا لموقفه من السيد المسيح وتأكيده أنه ما قُتِل وما صُلِب. إن الإسلام المنكر لصلب المسيح يؤكد أن كثيرًا من الأنبياء قُتِلوا في سبيل رسالتهم: {**أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقًا كذبتم وفريقًا تقتلون**} [البقرة، 87].

فلا ينكر صلب المسيح لعاطفة الزمالة ولا للتأثر بآراء النوستيسيزم بدليل موقفه أيضًا من المسيح بالذات، بل للرسالة مقام إنساني كبير، لا ينزع صفات البشر عن حاملها وهو مع ذلك مقام الاتصال بالله ونقل تعاليمه بكلّ أمانة ودون خطأ وتحريف.

المعاد

إن المعاد من المبادئ العامة لجميع الأديان ولأكثر المدارس الفلسفية، ولكنه عند الإسلام يتميز بخصائص مهمة تجعله فكرة ذات أصالة.

هذه الميزات هي، أولًا، أن الجزاء في يوم المعاد بنفس الأفعال الصادرة عن الإنسان: {**يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضرًا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا**} [آل عمران، 30]. ويختلف هذا التفسير عن المجازاة في الحقوق الجزائية وعن تفاسير المعاد في غير الإسلام حيث إن الجزاء نوع من ردّ الفعل الحسن أو القبيح للانتقام أو للتأديب أو الإصلاح. فالعمل يختلف عن الجزاء عادة، ولكن الجزاء في المعاد الإسلامي هو نفس الأعمال التي تتمثل بالصورة المتناسبة لعالم الخلود. والمعاد، من جهة ثانية، يوم بروز النتائج ووقت اكتشاف حقيقة الأعمال وإلّا فالجزاء حسب تحديد القرآن هو مقترن بالعمل وقت صدوره ولكنّه خفيّ عن الأبصار، {**ذلك يوم الوعيد**} [ق، 20]، {**لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد**} [ق، 22].

ومن جهة ثالثة، فالمعاد عند الإسلام هو تمثل الإنسان بجسمه وروحه للحساب وليتلقى حصاد عمره. أما النقاش المعروف بين فلاسفة الإسلام الملتزمين إنما هو حول تحديد معنى الجسم الذي يُحشر، لا في أصل المعاد الجسماني.

والباحث يعرف بعد هذه الملاحظات مدى الفرق الواضح بين المعاد الإسلامي وبين معنى السماء أو معنى عودة الروح عند المصريين القدامى أو الوثنيين في الجزيرة أو انتصار النور على الظلمة عند المجوس.

وأخيرًا،

تبلغ الذاتية في الإسلام قمتها في قسم الأمثال وقسم التاريخ، حيث إننا نعرف اليوم مدى ثقافة الإنسان في أقطار العالم ومقدار معرفته في العلوم والتاريخ حال ظهور النبي محمد وحال نزول القرآن. إننا نعرف ذلك، ولكننا نجد أن القرآن لم يتأثر أصلًا بالآراء العلمية السائدة في عصره وبالمعلومات التاريخية المعروفة عند البشر في ذلك الوقت.

فالآيات الواردة في الاستشهاد بحركات الشمس والقمر والنجوم والأرض وغيرها لم تتأثر إطلاقًا بالهيئة البطليموسية وآرائها.

والآيات التي تشير إلى مبدأ الخلق وتكوين الأرض واتساع الكون وغيرها تكاد أن تنطبق على أحدث النظريات العلمية من دون تأثر بثقافة عصر نزول القرآن.

والآيات التي تنقل تاريخ الفراعنة وخاصة فيما يعود إلى فرعون يوسف وتسميته بالعزيز وفيما يعود إلى غرق فرعون المعاصر للنبي موسى ونجاته ببدنه، هذه الآيات لم تتأثر أصلًا بالروايات الشائعة في عصر ظهور النبي محمد، بل إن بعض هذه المعلومات كانت خفية عن معرفة البشر إلى زمن اكتشاف تاريخ الفراعنة بواسطة شامبليون.

2) الروحية في الإسلام

هذا البحث أثار اهتمام كثير من الناقدين والمهتمين بالشؤون الدينية وقد قرأت طويلًا، وسمعت الكثيرين يناقشون هذا الجانب من الإسلام ويقفون عند "تدخل الإسلام في الشؤون المادية وعند مقابلة التعدي بالمثل وردّ الكيد بالكيد والاهتمام بالزواج والتأكيد عليه، وحتى الجنّة عند الإسلام التي تشبَّه ببستان أيضًا".

وتجاهل بعض هؤلاء الباحثين الروحية المتناهية التي تتجلى في العقائد الإسلامية في الخالق وصفاته وأسمائه، وفي جعل الإيمان بالغيب الركن الأساسي للإسلام في القرآن. ومهما كان فعلينا

أن نناقش هذا الموضوع بصورة موجزة بعد إلفات نظر المستمع الكريم إلى مقدمة إيضاحية.

إن التقليد الشائع يقتضي تقسيم الأشياء عامة، وأعمال الإنسان بالذات إلى مادية وروحية. وحسب هذا التقسيم يبدو أن لنا أمورًا مادية والاشتغال بها يُعدّ الانصراف إلى المادة نظير الأكل والشرب والزواج والتجارة وأمثال ذلك. ومقابل هذه الأمور فالصلاة والعبادة والفداء والتضحية والانصراف إلى التفكر تُعدّ من المعنويات والروحيات لأن القسم الأول هو أمور زائلة تناسب جسد الإنسان ورغباته الآنية، والقسم الثاني هو تلبيته لميول سامية ولرغبات روح الإنسان وقواها فتعد أمورًا غير مادية.

والحقيقة أن هذا التقسيم خالٍ من الدقة ولا ينطبق على التفسير الفلسفي، ولا على التعاليم الدينية ولا يحظى بإقناع روح المؤمن الفاحصة.

فالمادة في التفسير الفلسفي كلّ موجود يحتاج إلى الحيز والأبعاد، أو كلّ موجود متحرك متطور الحقيقة، والمجرد أيّ غير المادة هو ما ليس له أبعاد، وما لا يحتاج في ذاته إلى زمان أو مكان أو حركة.

وعلى هذا التفسير فجميع الحركات الصادرة عن الإنسان مادية حتى العبادات والفداء والإحسان وحتى التفكر، فإنه يقترن بحركات خلايا الدماغ التي هي مادية. ولا يتمكن الفيلسوف أن يتصور انفصال الجسم عن الروح وصدور أفعال من أحدهما بمعزل عن الآخر لكي يسمي بعضها أفعالًا مادية وبعضها الآخر أفعالًا روحية. بل التفاعل بين الجسم والروح يبلغ درجة تجعل منهما، عند كثير من الفلاسفة، تركيبًا اتحاديًا، وقد أبدع صدر الدين الشيرازي حيث جعل الروح ذات حدوث جسماني وبقاء روحاني.

فالميزان الصحيح لمعرفة مادية شيء وروحيته في أعمال الإنسان هو باعث العمل وغايته، فكم من صلاة أو صدقة أو تفكر هي من المادة في الصميم، وما أكثر الأعمال المادية أو الاجتماعية أو الإدارية التي تصدر لغايات سامية فتجعل منها عبادات مقدسة، ويتمكن المؤمن أن يجعل حياته كلّها سجودًا لله.

ومن جهة أخرى، إذا لاحظنا أن جميع الموجودات من خلق الله وجميع جوانب وجود الإنسان حقيقة واقعة تبرز الإرادة الإلهية، إذا لاحظنا هذا كلّه، فمن الصعب جدًا أن نفرّق بين وجود

وآخر، وأن نميز بين جانب وعمل وبين سائر الجوانب والأعمال، بل لا يمكن التفريق والتمييز إلّا إذا انحرف الإنسان بعمله عن الرسالة الحياتية التي أرادها الله له.

والآن نعود لكي نبحث في الجانب الروحي من الإسلام، ونقول: إن الإسلام يقدس جميع الموجودات الكونية ويعتبرها، بمادياتها ومعنوياتها، كلّها ساجدة لله مسبحة بحمده، وحتى الموجودات الشريرة أو الضارة فشرورها وأضرارها نسبية وإذا استعملت بقدرها وفي موضعها فلا شرّ ولا ضرر.

وبالنسبة إلى الإنسان يعترف الإسلام بجميع جوانب وجوده وجميع رغباته، ويحترم ذلك، ثم يحاول تنظيم صِلاته بغيره وتنسيق نشاطاته وتعديل رغباته لكي يلعب دوره الكوني أيّ دور خلافة الله في الأرض، فيعيش بجميع جوانب وجوده أفضل عيش وأطيبه وأكثره تمتعًا بالكون.

وفي هذا الخطّ، خطّ أداء الواجب، كلّ عمل من الإنسان عبادة وكلّ حركة منه مقدسة والعكس بالعكس.

وهكذا نرى أن الإسلام يعطي صفة الروحية لجميع أعمال الإنسان الصادرة عن باعث سليم، ويصبغ جميع الموجودات بصبغة القداسة.

فالأصحّ في التعبير ألّا نقول بضعف روحية الإسلام واهتمامه بالماديات، بل نقول بقوة هذا الجانب إلى حدّ يحوِّل كلّ شيء إلى الروحيات.

ولعلّ السبب في تعبير القرآن في أغلب المواضيع بالنفس دون الروح لأجل هذه المقارنة حيث إن الروح المهتمة بتصريف شؤون الجسد تسمى نفسًا. أما الروح فهي اسم خاص للشأن التجردي المطلق الذي يتجلى حال نزول الوحي وتدبير الشرع، والذي يواكب الملائكة في بعض الآيات القرآنية.

ومن أطرف ما يُرى في الأحكام والتعاليم الإسلامية أنها تؤكد على أن ما خلق الله من الزينة والطيبات هو خلق للإنسان وتوجه باللوم إلى من حرّمها. إنها تؤكد على هذه ومع ذلك فقد جعلتها فتنة وذلك تأكيد على أن النعم كلّما ازدادت، والأموال كلّما كثرت، والجاه كلّما عرض يجب، بنفس القياس، الازدياد من الإيمان والإكثار من التقوى، وإلّا فالإنسان يقع في خطر الانحراف عن الخطّ

المستقيم والالتهاء بالجانب الشخصي عنها والاستسلام لها. عليّ يقول: "ليس الزهد ألّا تملك شيئًا بل الزهد ألّا يملكك شيء".

وعلى ضوء واقع الإنسان وواقع الخلق وتفسير المعاد وكون الجزاء بنفس الأعمال، على ضوء هذه الأمور، نفهم واقع الجنة والنعم التي هيّأها الله لعباده المتقين.

وقد حاول القرآن الكريم بعد ذلك أن يسبغ على النعم هذه صفات روحية: كالخلود والطهارة وعدم السأم والخمول ووجود الصفاء وشمول الأخوة وعدم استماع اللغو والتأثيم: {**إلّا قيلا سلامًا سلاما**} [الواقعة، 26]. ومع ذلك كلّه جعل القرآن رضوان الله أكبر نعمة من نعم الجنة وأفضلها، ولكنها تغنّي النفوس الكبيرة التي كانت تقول: "إلهي ما عبدتك خوفًا من نارك ولا طمعًا في جنتك بل وجدتك أهلًا للعبادة فعبدتك".

أما حديث مقابلة التعدي بمثله من دون ظلم ولا تجاوز، فهو جزء من النظام العام الذي وُضِعَ لصيانة المجتمع وسلامته وحفظًا للإنسان، وسوف نبحث فيه في القسم الأخير من محاضرتنا.

وأحب أن أذكر هنا نقطة واحدة هي أن الإسلام في هذه المواضيع اعتبر العفو خيرًا وأقرب للتقوى إذ لا يوجب تمادي الطغيان والركون إلى الظلم وإلّا فهو منظلم يُعَدُّ الإنسان به أحد الظالمَين.

3) شؤون المجتمع

إن الإسلام لم يكتفِ في تعاليمه بالعقائد وبالتوجيه الخلقي، بل قدم نظامًا عامًا للحياة يشمل صلات الفرد بالآخرين وبالدولة وتنظيمات إدارية ودولية فضلًا عن قوانين الأحوال الشخصية.

هذه التدخلات التفصيلية في الشؤون الحياتية تفتح مجالًا للتساؤل عن سببها، ثمّ هل بالإمكان وضع نظام ديني يتمتع بالقداسة والثبات للمجتمع وشؤونه المتطورة في كلّ عصر حتى أصبحت كلّ يوم هي في شأن؟

ولأجل إيضاح هذه النقطة، التي أعتبرها أهمّ النقاط في هذه المحاضرة، والتي تجاوز السؤال عنها نطاق الكتب الباحثة عن الإسلام، بل أصبحت مجالًا لتساؤلات الجميع حتى المسلمين أنفسهم، لأجل إيضاح هذه النقطة نطرح أولًا هذا السؤال:

هل الذين يكتفون أو يريدون من الأديان أن تكتفي بالإيمان والأخلاق يعتقدون أن صيانة الإيمان والمحافظة على الأخلاق الحسنة أمران ممكنان لمن لا يرتبط في عمله الخارجي بخطة تتناسب مع الإيمان والأخلاق المذكورين؟

هل الإنسان، وهو موجود واحد لا موجودات متعددة، هذا الإنسان هل يتمكن أن يعزل روحه عن تأثيرات جسده أو يمنع جسمه من التفاعل مع روحه؟ والإيمان والأخلاق اللذان هما من أفعال النفس وصفاتها، هل يمكن إبعادهما عن تأثيرات أعمال الجسد؟

طبعًا الجواب سلبي وواضح، فإن التفاعل بين جوانب وجود الإنسان أمر بديهي، ولهذا ولأجل صيانة الإيمان والأخلاق لا بدّ من أن يتقيد الإنسان بعمله وأن يرتبط برباط يتناسب مع الصيانة الروحية المذكورة.

والقرآن الكريم مثل بقية الكتب المقدسة يؤكد هذا التفاعل، ويعلن أن ممارسة الأعمال السيئة تنزع الإيمان من القلب: {**ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون**} [الروم، 10]. ثم هل من المعقول أن يعيش الإنسان في مجتمع يناقض الخطّ الذي يسلكه في عمله ويتنافى مع إيمانه وأخلاقه ثم لا ينفعل بذاك المجتمع؟

إن الإنسان في تكوينه، في حياته، في حاجاته، في وعيه، في تفكيره وفي جميع جوانب حياته، الإنسان في جميع ذلك موجود اجتماعي يتفاعل مع مجتمعه الذي يعيش فيه. فهل يمكنه أن يعزل إيمانه وأخلاقه وأعماله الشخصية من تفاعلات مجتمعه؟

أعتقد أن الجواب عن هذا السؤال أيضًا واضح، ولهذا فقد أكّد الإسلام على لزوم إيجاد مجتمع يتناسب مع الإيمان والأخلاق والأعمال الصالحة وأعلن بصراحة: "ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعانًا وجاره جائع" (حديث شريف). أكرر كلمة "ما آمن" لكي ننتبه إلى التناقض الذي يراه الإسلام بين الإيمان وبين سوء الوضع الاجتماعي الذي يوجب هذه الظاهرة، والقرآن يؤكد هذا المبدأ: {**أرأيت الذى يكذب بالدين* فذلك الذي يدع اليتيم* ولا يحضّ على طعام المسكين**} [الماعون، 1-3]. وعلى هذا الأساس نجد أن الإسلام، الذي يؤكد نبيّه "إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق" (حديث شريف)، يحاول لأجل هذه الغاية أن يتدخل في الحياة العملية للإنسان، ثمّ في

الحياة الاجتماعية فيضع للأول مبدأ الحلال والحرام، وللثاني الأنظمة القانونية الواسعة التي تشكل ما يقرب النصف من التعاليم الإسلامية.

فلندخل الآن في مطالعة السؤال المهم الذي يُطرح وهو صعوبة انسجام القوانين الثابتة مع المجتمع المتطور. والجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى عرض أمور ثلاثة:

أولًا، إن التطور في الحياة وفي التاريخ البشري معناه تفاعل الإنسان مع الكون. فالإنسان في كلّ يوم تزداد تجاربه وتتقدم علومه، فيكشف أشياء جديدة من الكون، ثمّ يستعمل معرفته الجديدة ويمارس وعيه الجديد، فيستفيد من القوى الكونية المكتشفة، ويطوّر بذلك حياته الشخصية والاجتماعية، وينتقل إلى فصل جديد من فصول التاريخ البشري الطويل.

فالتطور هو قراءة الإنسان سطرًا جديدًا من كتاب الكون، وطي صفحة جديدة من هذا الكتاب وممارسة معرفته الجديدة والتغيرات الناتجة عنها.

هذا مفهومنا عن التطور. فليس هناك موجب غريب للتطور، يدخل من عالم آخر في حياة الإنسان وفي العالم الذي يعيش فيه الإنسان. ليس هناك شيء يطوّر حياة الإنسان من الخارج ولا هناك فقد عامل من عوامل الحياة الإنسانية لكي تتغير الحياة من أجله.

إن التطور هو تفاعل الإنسان مع الكون فقط، والمعروف أن الإنسان والكون عنصران كانا في مسرح الحياة من أول الخلق ما زاد فيهما شيء ولا نقص منهما شيء بل تبدأ كلّ صفحة جديدة من الحياة بكشف جديد للإنسان عن الكون وبتفاعل بينهما.

ثانيًا، إن الدين حسب رأي الإسلام شريعة وضعها خالق الكون والإنسان أيّ الله سبحانه. وخالق الكون يعرف جميع جوانب وجوده: ظواهره وبواطنه. ويعرف أيضًا جميع جوانب وجود الإنسان وجميع حاجاته ورغباته. إن الله يعرف هذا كلّه فوضع قوانين لكي يتمتع الإنسان بالكون فيحيا حياة طيبة كاملة، تمامًا مثلما تضع مؤسسات صنع السيارات توجيهات لصيانة السيارة والاستفادة الكاملة منها، لأن المؤسسة خبيرة بكيفية صنع السيارة ومشخصاتها وطرق الاستفادة الكاملة منها.

ثالثًا، قلنا إن الله خالق للكون وعارف به وخالق للإنسان وعارف به، وقد وضع نصوصًا وتوجيهات لكي يعيش الإنسان في الكون حياة طيبة كاملة ذات هدف كبير.

وحسب رأي الإسلام أيضًا وضع الله الشريعة والتوجيهات المذكورة بكلمات صادرة عنه، وهي الآيات القرآنية. والإيمان الإسلامي يرى أن معاني القرآن منزلة بألفاظه بعينها. والمعروف أن كلام الله يختلف عن كلام البشر تمامًا حيث إن فهم كلام البشر محدود بمستوى معرفة القائل ولا يمكن التجاوز لهذا الحدّ، وكلّما ازداد مستوى معرفة المتكلم ازداد إمكان تفسير كلامه والتعمق فيه، ولهذا السبب يتعمق القضاة والمحامون في تفسير نصوص القوانين إلى درجات تتجاوز جدًا حدود تفسير كلام العامة من الناس.

وحيث إن مستوى معرفة الله لا حدّ له فيمكن الاعتماد على جميع مراحل مدلولات كلامه، وكلّما ازداد التعمق فيه يتبين معنى جديد لكلامه. فكلام الله من هذه الناحية مثل الحقائق الكونية بل هو بعينه من الحقائق الكونية. يكتشف الإنسان منه في كلّ مرحلة شيئًا جديدًا، وكما يكتشف من الكون في كلّ مرحلة شيئًا جديدًا وكما تظهر كلّ يوم صفحة جديدة من حقيقة الإنسان بمعرفته الجديدة.

وبعد عرض هذه المقدمة نعود إلى الجواب عن التساؤل المذكور فنقول إن الإنسان له تفاعلات مع الكون تشكل أسس التطور، وهذه التفاعلات تنظمها شريعة الله ولها أيضًا مع كلّ مرحلة من التطور تعاليم متطورة تتناسب مع المرحلة التي يعيشها الإنسان فتنظم الصِلات والتفاعلات الثابتة بين الإنسان والكون.

وخلاصة الجواب أن على مسرحنا عوامل ثلاثة يواكب كلّ منها الآخر باكتشاف مراحل جديدة وحقائق جديدة، هي الإنسان، الدين والكون.

وبهذه الطريقة الموجزة يمكننا أن نحتفظ بصفة القداسة للأنظمة الدينية العائدة للإنسان والمجتمع مع إفساح المجال لتطويرها في الإطار العام الذي يتضح للباحث عنها. والتعاليم المتطورة تحتفظ بإلهيتها وقوتها وقيادتها قيادة متطورة، إنها مستقاة من القواعد الثابتة الدينية.

رعاية الإسلام للقيم والمعاني الإنسانية[4]

بسم الله الرحمن الرحيم

1- القيم والمعاني الإنسانية

هذا المفهوم يبدو وكأنه السهل الممتنع عن التحديد الدقيق، ولذلك نجد المدارس الفكرية تختلف في تفسيره وفي تحديد أبعاده.

وقد ادعى الكثير من حملة الأفكار الاجتماعية ومن قادة الحركات والنشاطات:

أن الإنسانية هي الطابع الأساسي لمساعيهم، وأن حبّ الإنسان هو الغاية لمحاولاتهم.

ولكي نضع حدًّا للغموض الذي اكتنف مفهوم الإنسانية ولا نغرق في دوامة التفسيرات اللفظية والتحديدات المنطقية، علينا:

أن ننظر إلى واقع الإنسان وأبعاد وجوده الحقيقية، ومن ثم ننتقل إلى المصدر المشتق منه "الإنسانية" وإلى معانيها وقيمها وإلى فعاليتها وقوتها.

الإنسان، أولًا، موجود عيني يختلف عن الموجودات العينية بحرية الاختيار، يعني أن أفعاله تصدر عن تأمل وإرادة ولو بصورة نسبية.

وهو، ثانيًا، متأثر إلى حدّ كبير بالطبيعة وبالموجودات الكونية المحيطة به، ثم إنه موجود اجتماعي يتفاعل تلقائيًا مع بني نوعه إلى أقصى الحدود.

وثالثًا، وفي الأساس، أنه مخلوق لله، خالق الكون والحياة، بما لهذه العلاقة من أبعاد وتأثيرات عليه بالذات وعلى علاقاته كلّها.

هذه الجوانب الثلاثة هي فصول كتاب الإنسان. والقيم الإنسانية إذًا:

هي الركائز الأصيلة التي خُلِقَتْ في طينته لكي تنمو بسعي وجهد منه التنمية المتكاملة بحيث لا ينمو جانب من وجود الإنسان على حساب جانب آخر، ولا تجمد أيّ ركيزة من هذه الركائز في حركة الإنسان المستمرة نحو الأفضل.

إنها الخطوط المرتسمة لكمال الإنسان الشامل والتي تنطلق من ذاته ووجوده.

إنها صبغة الله وفطرته التي فطر الإنسان عليها كبذور واستعدادات كانت في بدء خلقه تتحول عندما يسلك الطريق المستقيم إلى قيم ومعانٍ فعلية.

2- آراء أخرى

عندما أنكرنا الجانب الأول من وجود الإنسان واعتقدنا بأنه ظاهرة كونية شأن الظواهر الأخرى وفسّرنا حريته وإرادته بأنها ظاهرة طبيعية وجبرية،

أو فصلناه عن الموجودات الطبيعية واعتبرناه مصنوعًا في جسمه أو روحه بمعزل عن العالم المادي الذي عاش ويعيش فيه، وبالتالي أخضعناه للقدر المحتوم بالمفهوم العرفي للكلمة،

أو جعلناه فردًا يكون الأساس الوحيد للمجتمع الذي ليس إلا كمية من الأفراد،

أو تجاهلنا جانب الربط بالله وقصّرنا أبعاده دون امتداد إلى الأزل والأبد ودون اتصال بجميع المخلوقات الأخرى في التكوين والأدوار والمصير.

عندما تبنينا أحد هذه الآراء الثلاثة، نجد أنفسنا أمام إنسان آخر وأمام مفهوم آخر للإنسانية.

وبالفعل فإننا نجد في الوجوديين الفرنسيين رغبة ملحة لتبني الرأي الأول. وفي المشائين من فلاسفة اليونان والشرق وفي الجبرية جنوحًا نحو الرأي الثاني، وفي الفلسفة اليهودية وبعض غلاة المفوضة آراء تشبه الرأي الثالث.

أما الرأي الرابع فهو رؤية الماديين بصورة عامة أو الفلاسفة الغربيين الذين خرجوا على "اسكولاستيك"، وعزلوا كافة الماورائيات عن التأثير في الموجودات العينية، يعني أكثر علماء الاجتماع والفلسفة المعاصرين تقريبًا.

3- الإسلام والإنسانية

إن القرآن الكريم يؤكد التطابق الكامل بين الدين وبين الإنسانية حيث يقول: {**فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم**} [الروم، 30]، والحديث الشريف يعبِّر عن تساوي الإسلام وفطرة الإنسان بقوله: "كل مولود يولد على الفطرة".

وإذا لاحظنا أن مفهوم الإسلام هو التسليم لله، وهذا يعني أن كلّ شيء عندما يقف في مكانه الحقيقي من الخلق فهو مسلم. ولذلك، فإن الموقع الذي جعل الله للإنسان في الخلق وجعل الإنسان له هذا الموقع إنسانيته وإسلامه بنفس الوقت.

إذًا، الإنسان من هذا الموقع الطبيعي يرتبط بالخالق وبالموجودات البشرية والطبيعية.

فإسلام الإنسان إنسانيته.

وهذه الآيات المباركات من سورة البقرة توضح هذه الحقيقة: {**قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون* فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم* صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون**} [البقرة، 136-138].

4- من يرسم التفاصيل

إن الإنسانية وقيمها بالرغم عن ترابطها الذاتي بالإنسان، لا يمكن أن يحددها ويضع تفاصيلها الإنسان نفسه وذلك لعدة أسباب أهمها:

أولًا، إن مدارك الفرد والجماعة ومشاعرهما تتأثر حتمًا بمبادئهما الثقافية وبأوضاعهما الخاصة وبمصالحهما الأرضية.

ثانيًا، إن الفرد أو الجماعة في تكامل دائم ولذلك فهما في نقص وعجز دائمين عن إدراك أبعاد وجود الإنسان، الأبعاد التي يسير نحوها ويسعى للوصول إليها.

فإذا أراد الإنسان وضع تفاصيل الإنسانية وقيمها فإنه سيفعل ذلك بصورة نسبية، وهذا يؤدي إلى تعدد الإنسانية وإلى إخضاع الأهداف للأوهام والتخيلات.

أما الله، خالق الإنسان وخالق الكون والحياة، فهو المقام الصالح لوضع هذه التفاصيل، التي هي أبعاد الإنسانية الواحدة الكاملة، وهذا هو مفهوم ضرورة سماوية الدين، غيبيته وإطلاقه.

ولأجل التأكيد على صحة هذا البحث وتبني علماء الإسلام (رضوان الله عليهم) له نعيد إلى الأذهان المبدأ المعروف: "إن الواجبات الشرعية ألطاف في الواجبات العقلية"، والمبدأ الآخر: "كلّ ما حكم به العقل حكم به الشرق"، هذا إذا حكم.

هنا ننتهي من دراسة نقطة الأساس في هذا البحث، أيّ إن الإسلام هو الإنسانية وقيمها ومعانيها، وأن الإنسانية هي الإسلام.

5– إنسانية العقيدة

إن الأساس في العقيدة الإسلامية هو الإيمان بالله الواحد الأحد الذي {**له الأسماء الحسنى**} [طه، 8] والأمثال العليا، {**لم يلد ولم يولد**} [الإخلاص، 3].

والإيمان هذا:

أولًا، ينزّه الإنسان عن الخضوع الكامل (العبادة) للموجودات الطبيعية كلّها وللفرد المماثل له مهما بلغ من المقام، وبالنتيجة لا يحدد وجوده بحدّ مادي.

ثانيًا، يجند كافة طاقات الفرد نحو هدف واحد ويصونها عن الضياع والتسرب وعن الشرك، أيّ التجزئة المحطمة لحياته ولنشاطاته.

ثالثًا، يوجه الإنسان نحو الهدف اللامتناهي ويرسم لطموحه خطًّا طويلًا يتمكن من السير فيه منذ المهد إلى اللحد، وإلى ما بعد الموت.

فالموت لا يوقف تحرك الإنسان نحو الكمال بل العمل مستمر مع "ولد صالح وكتاب علم وصدقة جارية" على حدّ تعبير الحديث الشريف، والكمال والجزاء يزدادان عندما سنّ سنة حسنة وعندما يعمل بها أحد بعد موته إلى يوم القيامة.

رابعًا، يجعل الكمال الإنساني المستمر بعيدًا عن الاصطدام والتزاحم مع الآخرين حيث اللانهائية واللامادية تتحكمان في جوهر نشاطاته وعطائه.

خامسًا، بل يوحد طاقات الجماعة في تنسيق مقارن بالسباق ويحول دون الشرك الجماعي الذي يفرق المجتمع وطاقات أفراده {**ولا تكونوا من المشركين* من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا**} [الروم، 31-32].

سادسًا، إن معنى {**لم يلد ولم يولد**} [الإخلاص، 3]. يبعد العنصر الذاتي والانتسابات المتنوعة عن ميدان مكاسب الإنسان حيث إن الناس سواسية كأسنان المشط. بل إن له ما حصلت يداه {**ليس للإنسان إلا ما سعى**} [النجم، 39].

وفي هذا الصدد نطرح أيضًا أثر الإيمان بالمعاد وبعدالة المحاسبة الإلهية وبرؤية الإنسان، ما صدر عنه من خير أو شرّ حتى ولو كان مثقال ذرة. أقول أثر الإيمان بهذا على صعيد القيم الإنسانية يعكس:

أولًا، مقام الإنسان الرفيع الذي يجعله مسؤولًا في كبار أعماله صغارها وفي أسرار نشاطاته وبوارزها وفي كلّ أقواله وما يخفي صدره.

إن المسؤولية هي التأثير على النفس أو على الآخرين، فهي شأن كبير للإنسان وتشريف له.

ثانيًا، اطمئنانًا في نفسه بعدم ضياع جهده البارز أو الخفي وتأكيدًا على أن الجهد المبذول عن إخلاص حتى ولو لم يثمر لعائق يفوق قدرته فهو جهد مشكور "ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله". والمخطئ أيضًا باتفاق علماء المسلمين له أجر.

ثالثًا، ومن الانعكاسة الثانية نستنتج أن الإيمان بالمعاد يسهّل على الإنسان مهمة التغيير للمجتمع نحو الأفضل ومهمة تطوير نفسه في مطلق الأحوال.

إن المؤمن يسعى لأجل ذلك دون اهتمام بآراء المنتفعين بالأوضاع القائمة. إنه يريد وجه الله ويختار جزاءه الأوفى.

رابعًا، ولا ننسى هنا دور التوبة في توفير الجهد الإنساني ومنعه عن اليأس والخوف من الإحباط.

6- إنسانية الثقافة في الإسلام

إن المفاهيم العامة التي يقدمها الإسلام لتكوين ثقافة أولية أصيلة للإنسان المسلم، ولخلق نظرة له شاملة إلى الكون والحياة، هذه المفاهيم نجدها ترتكز على القيم الإنسانية وتصونها.

وإذا تتبعنا آراء الإسلام في الإنسان وفي الحياة والكون والمجتمع وغير ذلك من المفاهيم العامة التي لا تنالها يد العلم والتجربة وتبقى في نطاق النظريات إذا تتبعناها نلاحظ عمق إنسانيتها.

إن الإنسان في القرآن الكريم مكرم ومفضل على كثير من الخلق، مخلوق في أحسن تقويم من أحسن الخالقين وهو مخلوق بيد الله. إنه خليفة الله في الأرض علّمه الأسماء ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له وسخّر له الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار، إنه الموجود الوحيد الذي شرّفه الله بالعلم ومن إمكانية السيطرة على القوى الكونية وسائر الموجودات. إنه طيب الذات اهتدى إلى النجدين وأُلهم الفجور والتقوى حتى يكتمل على أثر الصراع الذي يشعر به عند الاختيار، وهذه ميزة ثانية له بين الموجودات كلّها وتجعله فوق صفوف الملائكة في المرتبة.

أما الموت والمرض والكوارث فنظرة الإسلام إليها طريفة جدًا وإنسانية جدًا.

أما الموت والأمراض والكوارث، فإن الموت زينة الحياة خُطّ على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، لأنه امتحان للإنسان وفرصة ليبلونا الله أيّنا أحسن عملًا.

إنه دخول على رب غفور الذي ما عنده خير وأبقى، وليس نهاية عمل الإنسان. فبإمكانه أن يتخطاه ويبقى مرزوقًا عند ربّه، فرحًا بما آتاه الله مستبشرًا بالذين لم يلحقوا به، وبإمكانه أيضًا تخليد أعماله وإبقاء نشاطاته.

أما الأمراض والمصائب ونقص الأموال والأنفس والثمرات فهي ابتلاء وتنمية لكفاءات الإنسان، وتدريب له على الصبر وفي نفس الوقت تنبيه له إلى حجمه الحقيقي، وأنه لله وإليه راجع.

ومن جهة أخرى، فإن المصائب والأمراض هذه شأنها شأن الكوارث الطبيعية التي تدفع الإنسان إلى معرفة أسبابها وتجنب مآسيها والسيطرة عليها قدر المستطاع فهي إذًا مدرسة إلهية ترفع المعرفة البشرية.

والمستقبل في رأي الإسلام للمتقين والنصر لأولياء الله وقد أراد أن يجعل: **{الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم وارثين}** [القصص، 5]، ونتائج هذه الرؤية تفاؤل في الإحساس وثقة بالنجاح وبالفرج.

والكون محراب كبير يسجد لله كلّ شيء، ويسبح بحمده ويصلي له، وكلّ شيء فيه منظم وبحسبان وجعل له قدرًا معينًا، وهذه الرؤية تنعكس على تحركات الإنسان ونشاطاته بصورة إيجابية ومؤثرة.

7- المجتمع الإنساني في الإسلام

إن الصورة التي يقترحها الإسلام لمجتمع المؤمنين من أهم المعطيات الثقافية الإسلامية، ومن أكثرها تأثيرًا في رعاية القيم الإنسانية. فالمجتمع كالجسد الواحد في رأي الإسلام.

إنه إنسان كبير واحد وليس فيه صراع ولا طبقات ولا فئات.

إنه يتكون من أفراد متفاوتة الكفاءات والطاقات، ولكنها متعاطفة ومتعاونة تتبادل الخدمات بينهم فيكتمل كلّ بأخذه من الآخر ويسمو كلّ بعطائه للآخر.

إن المجتمع تكوّن من الإنسان وللإنسان، فهو بصورة كبيرة عن الإنسان لا عن جانب واحد من جوانب وجوده، جانب الفردية فقط أو جانب الجماعية فقط، وإلا فسيتحول إلى وسيلة ضغط قوية على ناحية لمصلحة النواحي الأخرى؛ وهذا يؤدي إلى تحريف حقيقة الإنسان وتشويه وجهه الحقيقي.

إن المجتمع في رأي الإسلام يتكوّن من الإنسان كلّ الإنسان، من كافة أنواع الإنسان لا فرد منه ممتاز، ولا طبقة منه مفضلة، ولا عنصر من العناصر دون سواه، ولا فئة دون فئة حتى، ولا أكثرية دون أقلية ولا العكس بل للإنسان فحسب.

ويتكوّن هذا المجتمع للإنسان كلّ الإنسان، لا مجتمع ينمي بعض جوانب وجوده دون بعض، لا فرديته فحسب أو جماعيته دون سواها، لا جسمه دون روحه ولا العكس فلا رهبانية في الإسلام. إنه لكلّ إنسان ينمي كافة الكفاءات لكلّ فرد، ويوفِّر الفرص لكلّ طاقة إيجابية من كلّ فرد.

إن تمايز الشعوب المشكلة للمجتمع العالمي في رأي الإسلام للتعارف، وبالنتيجة للتبادل والتعاون اللذين ينتهيان إلى التكامل الإنساني على الصعيد العالمي، تمامًا كتمايز الأفراد داخل مجتمع واحد.

إن الولاء البشري نحو ما يحيط به وما ينتسب إليه الإنسان لا يمكن أن يكون مقترنًا بالشعور وبالتفوق والعنصرية، فالوطن والقوم والعائلة ليست أصنامًا تُعبد ولا يمكن تنمية أحدها وخدمته على حساب الآخرين.

إن الثروة في المجتمع الإسلامي شأنها شأن جميع الإمكانات الأخرى المملوكة للإنسان، وليست مالكة له متحكمة فيه وفي غيره. إنها أمانة الله بيد الإنسان.

فالأساس هو الإنسان وليس المال ولا الآلة، ولذلك فالطاقة البشرية تشكل العنصر الأول الممتاز في عناصر الإنتاج.

إن العمل يمكنه أن يساهم في الأرباح دون خسارة بينما الآلة لا يمكنها أن تنال هذا الحظ. والعمل أيضًا يمكنه أن يأخذ قيمة ثابتة دون رأس المال الذي حرمت عليه القيمة الثابتة "الربا".

إن الأحكام الإسلامية في حقل الاقتصاد الاجتماعي مليئة بالنزعة الإنسانية، ولذلك فقد عبَّر عنه القرآن الكريم بأنه فتنة مع أنه زينة الحياة الدنيا، وذلك لكي لا يطغى المال على الإنسان ولكي لا تصبح دولة بين الأغنياء.

وعلى صعيد السلطة فقد رفض الإسلام أيّ سلطة عفوية وموروثة لأي شخص على أيّ شخص عدا القاصر.

والسلطة الوحيدة هي سلطان الله أو السلطة التي تنطلق من التزامات الإنسان وعقوده وأماناته وهذه مشروطة بشروط صحة العقود من حرية ورشد ومعرفة.

إن هذا المجتمع هو المجال الخصب لصيانة القيم الإنسانية ولتنميتها.

8- الأخلاق في الإسلام

إنها غاية التعاليم الدينية وهدفها الأسمى وهي جزء أساسي من تكوّن الدين.

والملاحظ في الأخلاقية الإسلامية إنها تحارب بشدة العوامل التي تحول دون ربط الإنسان بالموجودات كالجبن، والتي تمنع التفاعل بينه وبين بني نوعه كالقسوة وغلظة القلب والاحتجاب عن الناس والغرور الذي هو شعور بالاكتفاء الذاتي والذي يمنع الأخذ والاستفادة من الآخرين، والكبر الذي يحول دون الاستفادة من الفيض الإلهي ودون سهولة استفادة الآخرين من الشخص.

إن الأخلاق الإسلامية في حال الاستعراض الشامل هي تمامًا ركن القيم الإنسانية أو سبل الوصول إليها وصيانتها.

9- الأحكام الإسلامية تصون القيم

لا يتجاهل الإسلام حاجات الإنسان ولا يدعو إلى إهمالها ومكافحتها، ولا يشجع الرهبنة في مختلف مصاديقها.

وقد سمى الإسلام وسائل إرضاء الحاجات هذه نعمًا من الله، واعتبر تلبيتها مع النية الصالحة عبادة لله.

ووضع لذلك كله حدودًا هي للحفاظ على مصالح الجوانب المتعددة من وجوده وصيانة كفاءاته، وإلا فقد جعل للإنسان ما في الأرض جميعًا، وأنكر على من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.

ومن جهة ثانية، يمكننا أن نسمي تصنيف هذه الحاجات وإرضائها إلى حلال وحرام. صوفية الإسلام حيث إن الإنسان لا ينطلق نحو ممارسة رغباته إلا بعد تأكده من رضا الله وهو بذلك يترفع

عن الانجراف مع أهوائه التي هي أصداء العالم المادي الذي يحيط به في الأغلب.

والحقيقة أن هذه الصوفية تختلف عن التصوف المعروف الذي يعتمد على تجاهل الرغبات بصورة حاسمة طلبًا لصفاء النفس وكمال الروح، بل هي تنزيه للإنسان من أن يتعود على التبعية لمحيطه الذي يفرض نفسه عليه عن طريق الرغبات.

إن المطلوب من الإنسان أن يكون فاعلًا في محيطه لا منفعلًا، مؤثرًا ومطورًا يقود، وهذا لا يمكن حصوله مع الانجراف وراء الرغبات.

والطريف في أحكام الإسلام حول الحرام والحلال ما عدا محتوياتها وأسبابها هو التعبير عنهما بالطيبات والخبائث فهي في الحقيقة تنزيه وتشريف للإنسان. ومن الصعب استعراض الأحكام الإسلامية في هذا المختصر ودراسة تأثيراتها على صيانة القيم الإنسانية، ولذلك نكتفي في ختام البحث بذكر بعض الأمثال الأخرى:

العبادات والواجبات والمحرمات محدودة بحدود الطاقة واليسر، أما العسر والحرج فقد يؤديان إلى رفع الحكم شأن الضرر والضراء في الحقوق والمعاملات.

الجهل والإكراه والاضطرار والنسيان والسهو كلّ منها يرفع المسؤولية ويبطل الالتزام.

العمل يتخذ طابع العبادة والعشرة وتأدية الواجبات العائلية والاجتماعية كلّها تدخل في مصاف العبادات لكي لا تفقد قداستها وإنسانيتها.

وجميع العلاقات القائمة بين الأفراد والجماعات في جميع الحالات تتصف بالطابع الإنساني ويبرز ذلك في أحكام الحروب.

وبعد، فهذه نماذج وعناوين لرعاية الإسلام للقيم الإنسانية ومفاهيمها أرفعها للمؤتمر الكريم في تواضع مؤكدًا أن كلّ بحث أو عنوان هو فصل من فصول هذا الكتاب الكريم، وأن تساوي الإسلام للإنسانية وقيمها يؤكد اتساع هذا البحث ولزوم دراسته في مجموعة العلوم الإسلامية وفي موسوعة إسلامية كاملة، راجيًا قبول بضاعتي المزجاة أمام الله مشرّع الإسلام وخالق الإنسان وقبول عذري من قبلكم.

الجانب الاجتماعي في الإسلام[5]

بسم الله الرحمن الرحيم

لا بدّ لي قبل الشروع في المحاضرة أن أقدم شكري لمؤسسة الطلبة المسلمين في دكار، التي هيأت لنا بإخلاص هذا اللقاء، وشكرًا للجامعة الكريمة التي سهَّلت لنا مهمة هذا اللقاء.

وأيضًا السلطات السنغالية التي هيأت لنا في هذه الفترة وسائل توفير الطاقات وإثمار النتائج حتى نتمكن من اللقاءات الثقافية مع إخواننا أبناء الجالية وإخواننا السنغاليين طول هذه الفترة التي أعتبر هذه الليلة مسك ختامها.

أما البحث في محاضرتنا، ففي أول الكلام يجب علينا أن نجيب عن هذا السؤال:

لماذا يهتم الإسلام بالجانب الاجتماعي ويتدخل في المسائل الاجتماعية؟ أليس من الممكن أن يوفِّر لنفسه طاقات ويكتفي بإعطاء التعاليم والمفاهيم في خصوص الإيمان والأخلاق والأفراد؟ أما كان من الأفضل أن يكتفي الإسلام بتربية الفرد، دون أن يهتم بالنواحي الاجتماعية؟

I– الفرد والمجتمع

الجواب عن هذا السؤال أننا إذا أردنا الحقيقة نجد أن الفرد جزء حقيقي من مجتمعه، يتأثر بمجتمعه ويؤثر فيه بصورة واضحة. فالإنسان في تكوينه، في حياته، في ثقافته، في حاجاته، وفي كلّ شيء جزء من مجتمعه متأثر بمجتمعه. لا يمكن أن نهتم بوضع الفرد ونتجاهل وضع المجتمع، لا يمكن أن نخطط تخطيطًا كاملًا للفرد ولتربيته ونتركه يعيش في مجتمع لا يتناسب مع تعاليمنا وتخطيطاتنا. فإذا أردنا للفرد أن يكون صالحًا مؤمنًا خلوقًا لا يمكن لنا أن نتجاهل مجتمعه. والحقيقة

أن الإسلام يعترف على لسان نبيه بقوله: "بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق"، ولكن هل من الممكن أن نصون ونحتفظ بمكارم أخلاق الفرد ونتركه يعيش في مجتمع لا يتناسب مع هذه الأخلاق ومع هذا الإيمان ومع هذه الأفعال؟ حتمًا لا.

أعتقد أن المسألة لا تحتاج إلى دليل تأثّر الإنسان بمجتمعه، ولهذا فالإسلام الذي يريد أن يربي الفرد، يحاول أن يخلق للفرد مجتمعًا يتناسب مع تربية الفرد، مع إيمانه، وأخلاقه، وأعماله. هذا هو السبب لتدخل الإسلام في شؤون المجتمع.

II– ما هو المجتمع؟ وكيف يتكوّن المجتمع؟

لا شك أن المجتمع يتكوّن من الأفراد، ولكن هل يكفي وجود الأفراد لتكوين المجتمعات؟ كلا.

فإذا افترضنا ألف فرد من البشر من دون أن يكون بينهم تبادل وتفاعل، أخذ وعطاء، بيع وشراء، إذا لم يكن بين الأفراد تبادل فلا يكون هناك مجتمع. فتكوين المجتمع على أساس وجود الأفراد المتبادل عملهم وكفاءاتهم بعضهم مع بعض. فحينما يعطي أحدهم ويأخذ، والآخر والثالث، وهكذا يتكون المجتمع وإلّا فلا. فإذًا، تكوين المجتمعات قائم على أساس التبادل. أما التبادل بين أفراد المجتمع كيف يحصل؟ يحصل لأحد أسباب ثلاثة:

السبب الأول: التفاوت في الكفاءات. فكما أن البشر شكلهم الجسدي يختلف أحدهم عن الآخر كذلك يختلف البشر في شكلهم النفسي، في استعدادهم، في كفاءاتهم. فتفاوت أفراد البشر يجعل الجريان متبادلاً بين فرد وآخر. من باب المثل، إذا قارنتم ماءين أحدهما أبرد من الآخر وفي نفس الوقت أحلى من الآخر، حينما تقرب الماءين، فالماء البارد يأخذ فورًا الحرارة من الماء الحار، والماء الحار يأخذ البرودة من الماء البارد فيحصل بين الماءين جريان متبادل. أما لو فرضنا ماءين بمستوى واحد من الحرارة والبرودة فلا يحصل بينهما أيّ جريان. فإذًا، الجريان يعني التبادل، الأخذ والعطاء الذي هو أساس تكوين المجتمعات، يحصل بتفاوت الأفراد بالكفاءات. هذا السبب الأول.

السبب الثاني: إن البشر أمامهم أهداف ومنافع وغايات هي أعظم من الفرد، وأقوى من الفرد، بحيث لا يمكن للفرد وحده أن يحقّق تلك الأهداف وأن يصل إلى تلك المنافع، ولهذا هو يحتاج إلى التعاون مع الآخرين لكي يقوى ويتمكن من تحصيل تلك الغايات والوصول إلى تلك الأهداف.

والسبب الثالث: هو أن الإنسان أمامه أخطار وأعداء ومضار هي أقوى من طاقاته الفردية، فإذا كان وحده غير متعاون مع الآخرين فلا يتمكن أن يتغلب على الصعاب ويكافح مقابل الأعداء ويدافع عن نفسه.

هذه الأسباب الثلاثة: التفاوت في الكفاءات، وكون الأهداف والمصالح أكبر من طاقات الفرد، وكون الخسائر والمضار أكبر من طاقات الفرد، هذه العوامل الثلاثة، تفرض على البشر أن يكوّنوا المجتمعات. هذه الأسباب الثلاثة أصيلة في الإنسان منذ أن خُلق. ولهذا، فالمدنية أيّ رغبة الإنسان في تكوين المجتمعات طبيعة أصيلة في الإنسان لأن أسبابها أصيلة. ولعلّ الرأي العام الذي يقول إن الإنسان مدني بالطبع ناتج من هذه الأسباب الثلاثة حسب ما أفهم، ولعل لها أسباب أخرى.

قلت هذا لكي أصل إلى هذه النقطة، أن الرغبة والشعور لتكوين المجتمعات، أيّ الرغبة والشعور في الأخذ والعطاء، أيّ الرغبة والشعور في أداء الواجبات يعني حقوق الآخرين عليك، وأخذ الحقوق أيّ واجبات الآخرين تجاهك، هذا الشعور الذي نسميه الشعور المدني، أو نسميه الشعور بالأخذ والعطاء، نسميه الإحساس بالحقوق والواجبات. هذا الإحساس أصيل في البشر، وطبيعي في البشر، والإسلام حينما يأتي على هذا الشعور يحاول أن يفلسف هذا الشعور لكي يُعمّقه.

III– أصالة المجتمع

أولًا: الشعور موجود في الإنسان، لكن الإسلام يفلسفه حتى يتعمّق في نفس الإنسان.

ثانيًا: الإسلام يقدّس هذا الشعور ويعطيه صبغة القداسة، يعطيه جمالاً.

ثالثًا: الإسلام يكرّس هذا الشعور بتعاليمه ويضع له خطوطًا وموازين ويحدد شكلًا واسعًا لنوع المجتمعات الدينية.

فإذًا، نبحث في النقاط الثلاثة. الشعور موجود في البشر. كيف يعمّق الإسلام هذا الشعور؟ وكيف يقدّسه؟ وكيف يكرّسه؟

أما النقطة الأولى، كيف يعمّق الإسلام هذا الشعور؟ فمن باب المثل أذكر لكم مثلًا صغيرًا: حينما نريد أن نربي أولادنا، قد نقول له لا تكذب، نوجّه الخطاب للطفل فنمنعه من عملٍ ما. هذه التربية سوف تكون سطحية. ولكن إذا أقنعنا الطفل بقبح الكذب، أيّ فلسفنا طلبنا وقلنا لا تكذب، لأن

الكذب قبيح فسوف يكون هذا النوع من التربية أعمق، وقد نخلق للطفل جوًا صالحًا لا يحتاج إلى الكذب، ويجد نفسه غريبًا إذا كذب؛ فسوف يكون هذا النوع من التربية أعمق وأقوى.

نرجع إلى حديثنا لكي نرى كيف يعمّق الإسلام شعور الإنسان بتكوين المجتمعات. لا يقول الإسلام للإنسان كن وفيًا في التزاماتك، خذ واعطِ، أدِّ الأمانة فحسب! بل يحاول أن يعطي للإنسان صورة واضحة عن الكون الذي يعيش فيه الإنسان، فيقول للإنسان، أيّها البشر هذا الكون الذي تعيش فيه والذي هو يشكل محيطك وأقوى المؤثرات فيك، هذا الكون كون منظم، كلّ شيء فيه بمقدار، كلّ جزء من أجزاء الكون يؤدي دوره الكوني بدقة واتقان؛ فأنت إذا أردت أن تعيش في هذا الجوّ وفي هذا الكون منسجمًا معه يجب عليك أن تكون منظمًا دقيقًا مؤديًا لأماناتك، وفيًا لالتزاماتك.

نجد في القرآن الكريم هذه الآية في سورة الرحمن: {**وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ**} [الرحمن، 7]، أيّ ميزان هذا؟ الميزان الحقيقي، يعني العدالة في الخلق، والدقة في الصنع. ثم من قول القرآن الكريم: {**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**} [الأعلى، 2-3]، فكلّ شيء دقيق ثابت منظم: {**وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ**} [الرحمن، 7]، لماذا؟ {**أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ**} [الرحمن، 8]. أقول لك إن الكون منظم تحت الميزان، مؤدٍّ للأمانة، يعني: البشر الذين يعيشون في هذا الكون يكونون دقيقين في الميزان ولا يبخسون فيه؛ أيّ لا يكون ما يعطونه أقلّ مما يأخذون ويعطون، ولا يكونون ظالمين في التنظيم.

فإذًا، طريقة التعميق في هذا الشعور في الإسلام أن الكون منظم، الكون يعطي، الكون دقيق. فأنتم يا بشر إذا تريدون أن تكونوا منسجمين مع هذا الكون فيجب أن تكونوا دقيقين. فيخلق الدين للبشر جوًّا عميقًا حتى ينبع شعوره بلزوم الوفاء وأداء الأمانة من جذور تمتدّ إلى السماء والأرض. وليس هناك طلب سطحي أو عمل شكلي، بل عمل قائم على أساس هذه الجذور العميقة. هكذا يجعل الدين، العمق في شعور الإنسان بوجوب أدائه لواجباته، وممارسته لحقوقه أيّ في تكوينه للمجتمعات كما فسرناه.

ثانيًا، يحاول الإسلام أن يقدّس هذا الشعور أيّ شعور الإنسان بالمدنية أو شعوره بحقوقه وواجباته، أو شعوره بالأخذ والعطاء، كيف يقدّس هذا الشعور ويصبغه بصبغة القداسة؟ من عدة طرق.

الطريق الأول، إن العطاء في الإسلام جزء من الواجبات الدينية. ففي أول القرآن تقرأ في سورة البقرة في تفسير المتقين: {**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**} [البقرة، 2]، من هم المتقون؟ يصفهم: هم الذين يمارسون خمسة مبادىء: {**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**} [البقرة، 3]، المبدأ الأول. {**وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ**} [البقرة، 3]، المبدأ الثاني. {**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**} [البقرة، 3]، المبدأ الثالث. {**والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ**} [البقرة، 4]، المبدأ الرابع. {**وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**} [البقرة، 4]، المبدأ الخامس.

المبدأ الثالث من هذه المبادئ الخمسة: {**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ**} [البقرة، 3]. المبدأ الثالث: {**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**} [البقرة، 3]: الإنفاق ليس معناه دفع المال، بل الإنفاق مما رزقناهم معناه العطاء. فإذًا، المتقي المؤمن هو الذي يعطي من علمه، من جاهه، من خبرته، من كفاءاته، من كلّ شيء.

الذي يعطي هو المتقي، فإذًا، العطاء الذي يكوّن المجتمعات هو من التقوى. فالعمل الاجتماعي، وأداء الواجب الاجتماعي يُعتبر واجبًا دينيًا أصيلًا. ولنعلمْ أن الإنفاق، التعبير بالإنفاق يختلف عن التعبير بالصدقة. فالإنفاق يُطلق على عطاء الرجل لزوجته وهذا حقّ، وليس بذل وسخاء، بل أداء للواجب. فإذًا، العطاء يعطي الإسلام صبغة الوجوب، صبغة القداسة. أيضًا إذا لاحظنا أن ما يعطي الفرد للمجتمع حقوق المجتمع عليه، الإنسان يُعطي للمجتمع، هذا حقوق المجتمع عليه ويأخذ من المجتمع أيّ حقوقه على المجتمع. واجبات وحقوق. حقوق المجتمع يُعطيها الإنسان، يؤديها الإنسان. فإذًا، بإمكاننا أن نعبِّر عن جميع الواجبات بأداء الأمانة. الذي يؤدّي الأمانة يعني يعطي حقوق الناس كافة من دون بخس ولا نقص. يعطي جميع الواجبات، يعني يؤدي الأمانة.

فإذًا، بإمكاننا أن نعبِّر عن العطاء الذي هو ركن أساسي لتكوين المجتمعات بأداء الأمانة، حينئذ نرجع إلى ما في هذه الكلمة من القداسة، أداء الأمانة، وما في هذه الكلمة من الجمال والميزة للإنسان، ونفهم معنى الآية الكريمة: {**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ**} [الأحزاب، 72]. الإنسان هو الموجود الوحيد الذي تمكّن أن يؤدي الأمانة، وأن يحمل الأمانة.

وهنا نصل إلى نقطة ثانية، لماذا الدور الكوني الذي يقوم به الشمس والقمر وسائر أجزاء الكون عُبّر عنه في القرآن الكريم بالسجود، بالتسبيح، بالصلاة، ولكن ما عُبّر عن أدوار الموجودات

بالأمانة؟

لأن الأمانة أمر اختياري؛ فالإنسان هو الذي يؤدي واجباته بملء إرادته، بينما الشمس والقمر وسائر أجزاء الكون تؤدي واجباتها لا بطوع إرادتها، بل من دون إرادة. مسَيَّرة ومُسخَّرة نحو أداء الواجب. الإنسان هو المخيَّر الوحيد، ولهذا عُبّر عنه بأداء الأمانة.

فإذًا، عطاء الإنسان إنفاق وجزء من صفات المتّقين الخمسة. أداء للأمانة، وأداء الأمانة واجب، وهكذا نجد في هاتين الكلمتين وفي أمثالهما من التعبيرات ما في الكلام وما في العطاء من صبغة القداسة. وهكذا نجد في التفسيرات الدينية هذه الكلمة: "الخلقُ كلهم عيالُ الله وأحبُّ الناس إليه أنفعهم لعياله". فالعطاء للمجتمع هو نفع لعيال الله وتقرّب إلى الله. بهذه الكلمات الثلاثة نصل إلى ما قلنا بصورة موجزة: إن الإسلام يقدس الصِلات الاجتماعية ويعتبرها مقدسة وعبادة.

ثالثًا، يكرّس الإسلام هذه الصِلات ويضع لها خطوطًا وموازين وهذا واضح بصورة صريحة في مجموعة تعاليم الإسلام أذكر نماذج منها، ولا مجال للتفصيل فأنتم تعلمون أن الدين له حقول مختلفة، فهناك:

1. الحقل الثقافي: يعني المفاهيم التي يعطيها الإسلام عن الأشياء. التفسيرات التي يعطيها الدين عن الأشياء.
2. الحقل الإيماني: يعني الإيمان بالله، وباليوم الآخر، وبالنبوة.
3. حقل الأحكام: يعني الواجبات والمحرَّمات، الصحيح والفاسد، ما يجوز وما لا يجوز.
4. حقل الأخلاق، الصفات.

أربعة حقول موجودة، ونحن نجد تكريس الصِلات الاجتماعية واضح في جميع الحقول الأربعة.

أما في المفاهيم، فننظر إلى تفسير الإسلام عن المجتمع فنجده يقول: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}** [الحجرات، 10]. يعتبر أن أفراد المجتمع إخوة. وهكذا يريد أن يعطي صفة الرَّحِمية والصِلات العاطفية والمنطقية بين أبناء المجتمع بعضهم مع بعض. ثم يبالغ في هذا التفسير ويتجاوز حدّ الأخوة

ويقول: المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الأجزاء بالسهر والحمى. فيُشبه أجزاء المجتمع وأفراد المجتمع بأجزاء جسد واحد. وهذا المعنى يظهر في كثير من الآيات القرآنية التي تعبِّر عن الأفراد ب- "بعض". وأنتم تعلمون أن في الاصطلاح المنطقي فرق بين البعض والفرد؛ فالبعض قطعة من الشيء والفرد فرد كما تعلمون. وهكذا تجد في التعاليم أنه يعبِّر عن الأموال بأموالكم: **{لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ}** [النساء، 29]، يعني الأموال كلّها، مالكم يعتبر مال الجميع، بعضكم من بعض؛ أوفوا بعقودكم، يعتبرهم قطعة واحدة ذات أجزاء متعددة. فتفسير الإسلام عن المجتمع، والمفهوم الذي يعطيه عن المجتمع: الأخوة، أو جسد واحد، هذا في الحقل الثقافي.

أما في حقل الإيمان والعقيدة فتجد أن الإسلام يأمر بالاجتهاد في أصول الدين، يعني يقول إن المسلم هو الذي يعرف وِحدة الله بدليل ومنطق، أما الإيمان التقليدي فلا يكفي، لماذا يصرّ على ذلك ويريدنا أن نعرف المبادئ الدينية معرفة عميقة؟ يريد ذلك حتى نعيش إيماننا! ما الفائدة من ذلك؟

الإيمان بالله الواحد معناه أن الخلق كلّهم - ما دام الله واحدًا، ليس له ولد ولا والد ولا كفء ولا قريب ولا رحيم- فإذًا، جميع أفراد البشر سواسية كأسنان المشط. حينما كان أبناء البشر متساوين، يسهل التعاون بينهم لأنه ليس هناك من هو فوق الآخر وغني عن الآخر حتى لا يحصل التعاون، بل كلّ فرد هو بحاجة إلى الآخر. فاعترافنا بأن البشر متساوون يُسَهِّل لنا مهمة التعاون، والأخذ والعطاء، فليس بين البشر غني كلّيّ ولا فقير كلّيّ، بل كلّ منهم غني من جهة وفقير من جهة، فيأخذ ويعطي. بينما لو ما آمنا بهذا المعنى، وقلنا إن بعض البشر في غنى عن البعض الآخر يصعب التعاون.

ومن ناحية ثانية، حينما لا يوجد في البشر قديس مصون عن الخطأ، فكلّ فرد قابل للخطأ ويحتاج إلى المشورة، وهذا يكرس التعاون الفكري بين البشر. فالبشر بحاجة إلى التعاون الفكري والاعتناء الاجتماعي، وهذا ناتج عن اعترافنا بأن البشر كلّهم متساوون. وهكذا إذا قلنا إن الله الواحد هو مبعث جميع حركاتنا وانطلاقاتنا يحصل شيء من وحدة المبدأ، وتنسيق الحركة مما يُسَهِّل مهمة التعاون بين أبناء البشر.

كما وأن المفهوم هذا مكرّس بعدة تعبيرات. فالله واحد وهو خالق الجميع. والإنسان والبشر كلّهم من أب واحد وأم واحدة، فهم إخوة، ومصيرهم واحد: {**إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ**} [البقرة،

156]. فإذًا، المبدأ والمصير والخطّ واحد. وهذا يُسهّل مهمة التعاون والتنسيق وتكوين المجتمعات، هذا فيما يعود إلى أبناء البشر. فالبشر ليس بين أبنائه ميزة ولا تفاوت، هناك تفاوت في الكفاءات وليس تفوق لبعضهم على بعض. في هذه المناسبة أحبّ أن أذكّر إخواني بكلمة معروفة: قد يُقال إن الإنسان إذا راجع القرآن يجد أن في القرآن اعترافًا بتفوُّق بعض البشر على بعض، يستندون إلى هذه الآية: {**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**} [الزخرف، 32]، قالوا إن الإسلام يعترف بتفوق البشر بعضهم على بعض، وهذا لا يجتمع مع ما يقال: "الناس سواسيةٌ كأسنان المشط". ولكن إذا لاحظنا معنى الآية ومقارنات الآية، نجد أن الآية لا تريد أن تكرّس تفاوتًا وتقدمًا ورفع بعض البشر على بعض، بل يقصد ما قلنا من التفاوت في الكفاءات. فكلّ إنسان في اختصاصه فوق الآخر: الطبيب في طبّه فوق المريض، ورجل الدين في اختصاصه فوق السائلين، والمهندس في اختصاصه فوق الآخرين، والطبيب في فوقيته (يعني في اختصاصه) يقود الآخرين، والآخرون يقتدون به في حقله الاختصاصي. بينما نفس الطبيب الذي يقودني في اختصاصه ينقاد معي في اختصاصي، وكلانا ننقاد للمهندس في حقل اختصاصه، وثلاثتنا ننقاد للمحامي في اختصاصه، وأربعتنا ننقاد للتاجر أو الفلاح في اختصاصه المعيَّن. فإذًا، رفعنا بعضكم فوق بعض في اختصاصاتهم: {**لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا**} [الزخرف، 32]، وهذا معنى تفاوت الاختصاص.

فإذًا، البشر سواسية كأسنان المشط، التفاوت في الكفاءات. وهذا يكرّس تسهيل التعاون بين أبناء مجتمع واحد، ثم الإيمان بعدالة الله، بكمال الله. بسم الله الرحمن الرحيم، الله هو مجمع صفات الكمال، الله رحيم، رؤوف، ودود، عادل، عالم، خلق الخلق وانعكست على الخلق صفاته، وهذا شيء طبيعي. الانسجام بين العلَّة والمعلول والتناسب بين العلَّة والمعلول. فالمعلول بشكل العلَّة دائمًا، وهذا يكرّس مبدأً ثانيًا، ذلك المبدأ أن الإنسان طيّب بحسب ذاته، ليس في البشر لئيم ولا شخص لا يمكن إصلاحه ولا التعاون معه، وإن وُجد فهو شذوذ في الخلق. وهذا يُسَهِّل على الإنسان التعاون ويسمح له بأن يمدّ يده إلى كلّ إنسان لكي يتعاون معه: {**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**} [الروم، 30].

فإذًا، الإيمان بالله الواحد يسهّل، والإيمان بعدالة الخالق يسهّل، والإيمان بالمعاد والحساب يجعل الإنسان يشعر بمسؤوليته الدقيقة وواجباته الدينية تجاه مجتمعه فيُعطي ولا يبخس في المكيال على هذا الأساس.

فإذًا، الحقل الثقافي أعطى مفهومًا جميلًا للمجتمع. والحقل الإيماني كرّس طريقة سليمة لتكوين المجتمعات.

ثم في حقل الأحكام نجد أن في الأحكام كثيرًا من الأبحاث تهتمّ بشؤون المجتمع نستعرض بعضًا منها حول تكوين المجتمعات، تجد كيف يكرّس الإسلام الصِلات. فتجده في حقل الأسرة يقدّس الصِلات بين الزوج والزوجة ويعتبرها واجبات مقدسة ليس فوقها واجبات، ويعتبر أن الزواج أفضل من بناء المسجد، وهدم الزواج والتقصير في أداء هذه الواجبات أشدّ عصيانًا من التقصير في عمران المسجد. فإذًا، الصِلات بين الزوج والزوجة صِلات مقدسة قوية.

ثم الصِلات بين الأبناء والوالدين يكرسها أيضًا ويعتبرها واجبات مقترنة بإطاعة الله، فتجد عشرات من الآيات القرآنية تذكر بعد الإطاعة لله الإحسان بالوالدين. هذا للزوج والزوجة ثم الأولاد والوالدين، ثم الأرحام، فيوجب صلة الرحِم ويُحرّم قطيعة الرحِم، وهكذا يُقوي الصِلات بين العائلات.

ثم يأتي في حقل الجار، فيوصي ويؤكد على الجار، يقول عليّ (عليه السلام): لا زال يوصينا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالجار حتى ظننا أنه يُوَرثه. توصيته بالجار لا تقلّ عن توصيته بالرحِم. يفسّر الجار بأن يكون بينك وبينه أربعين بيتًا، وهذا معناه بلد بأكمله كلّهم جيران. محاولة لتكريس هذه الصِلات وتقويتها.

ثم يقول في تعليماته إن المسؤولية في أهل بلد واحد مسؤولية مشتركة. فإذا مات أحد في البلد من الفقر أو الجوع أو المرض فلا ينظر الله إلى أهل هذه البلدة. وهكذا يعتبر أن كلّ فرد أمام فرد آخر من بلده عليه واجب ولا يمكن أن يتخلف عنه: "ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعانًا وجاره جائع". وهكذا يكرّس صِلات أفراد المجتمع بعضهم مع بعض تكريسًا قويًا ثم يزيد في ذلك فيحرم التحجب عن الناس، عن الآخرين، يحرّم الإيذاء، والظلم، والغيبة والافتراء وكلّ ما يضعف صِلات المجتمع ويبعد بعضهم عن بعض.

أما في العبادات فتجد الإسلام يهتمّ اهتمامًا كُليًا ويُعطي في كلّ عبادة صبغة اجتماعية. فلعلّكم تعلمون أن الصلاة أول ما نزلت جماعة، ثم سُمِحَ للمسلمين أن يُصلوا فُرادى. فالصلاة من طبيعتها جماعة، ثم توجه جميع المسلمين إلى قبلة واحدة، ينسِّق هذه الصلاة ويعطيها صفة اجتماعية حيث إن زمان الصلاة واحد، والقبلة واحدة، والمكان المفضل المسجد والطريقة المفضلة الجماعة، والصيام في شهر رمضان عبادة اجتماعية.

والحجّ كما تعرفون، آلاف من الناس أو أكثر بملابس واحدة، في حركات واحدة، في وقت واحد وفي صفات وحالات واحدة يؤدون واجب الحجّ وما أجمل هذه العبادة وأكثر جوانبها الاجتماعية.

أيضًا الزكاة (بجميع أفرادها) واجب اجتماعي. وتختلف الزكاة، أيّها الإخوة، عن الضرائب الحكومية التي كانت تفرضها الدولة الإسلامية في وقتها. فالزكاة والصدقات كما تبين من الآية الكريمة واجبات خُصِصتْ لحلّ مشكلة الاختلاف الطبقي لا لتموين خزائن الدولة، وإعطاء الموظفين وسائر الأعمال، بل لتقارب الطبقات من الناحية المادية بعضها من بعض بالطرق المتناسبة للعصر.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين هما أساسان للتعاون الاجتماعي، والضمان الاجتماعي بين أبناء المجتمع، فـ "كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته". وإذا أردنا أن نبحث بصورة واسعة عن العبادات فلا يمكن لنا والوقت يضيق بنا بالنسبة للعبادات.

والحقل الرابع، الأخلاق، الثقافة والإيمان والأحكام والآن حقل الأخلاق. تجد في حقل الأخلاق أحكامًا واسعة، وتعاليم مكررة لأجل إيجاد شعور واسع في الإنسان، وأنه أوسع من نفسه. يريد الإسلام في تربيته الخُلقية أن يوحي إلى الفرد بأنك لست وحدك، بل أنت جزء من المجموعة، يكرِّس هذا في تعاليمه الخُلقية. ثمّ بالأخلاق يسهل التعاون بين الأفراد بعضهم مع بعض. ولا يمكننا استعراض جميع أنواع الأخلاق في محاضرة واحدة، وإنما استعرضنا بعض فقراتها بصورة موجزة.

فمن الأخلاق السامية: محبة الناس- الكرم- التواضع- حسن الظن- لين العريكة- الصدق- عون الضعيف- تعليم الغشيم- إكبار الكبير- ترحُّم الصغير- إفشاء السلام- بشاشة الوجه- إخفاء

الحزن- عيادة المريض- الأدب في المحضر- تقدير الصالحين- تأنيب الفاسدين- الحياء- العفو- قبول العذر- قبول التضحية- الخدمة للرفيق- إسماع الأصم بدون تضجر- توسُّع المجالس- وآلاف من هذا النوع، التي كلّ واحد منها يقوّي شعور الإنسان بالاتساع والسموّ، ويُسَهِّل التعاون والتحابب وتقوية الصِلات الاجتماعية بعضها مع بعض.

أما إذا أردنا أن ندخل في تفاصيل الأحكام التي وردت في تحديد الشؤون الاجتماعية فسوف نضطّر إلى ذكر نصف الفقه الإسلامي الذي يتكوّن من أبواب المعاملات وأبواب السياسات. وهذه الأبواب نصف الفقه إن لم يكن نصفه الأكثر، كلّها تنظيم وتحديد للشؤون المختلفة: الأحوال الشخصية، القوانين المدنية وأمثال ذلك، وهذه بحاجة إلى محاضرات عديدة.

وهنا يجب أن نذكر عدة نقاط:

الإسلام الذي يعمّق الشعور المدني في الإنسان، ويقدّس هذا الشعور، ويكرّس هذا الشعور قبل ذلك كلّه يحاول الإسلام أن يعطي فكرة عن المجتمع للفرد، يريد أن يبين له أن المجتمع هو من صنع يدك ومن خلقك أنت، ليس شيئًا مفروضًا عليك من الخارج، وهذا أمر أساسي. الإنسان إذا شعر بأنه هو الذي يكوّن المجتمعات يتمكن أن يطوّر المجتمعات وأن يعطي ويأخذ حسب التخطيط المنظم، يقول هذا في القرآن الكريم في عدة آيات: {**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**} [الرعد، 11]، {**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**} [الروم، 41]. هكذا في كثير من الآيات تكريس لأن ما ترى من المجتمع ناتج من الأنظمة، والأنظمة هي طور يدك، ورهن إشارتك، ومن خلقك، فأنت الذي تخلق المجتمعات ولهذا يعطيه بعدما يعطيه القداسة والعمق والتكريس، يعطيه إمكانات لكي ينفّذ هذه النقاط الثلاثة في حقل تربوي، يكوّن المجتمع كما يريد، ولا يعتبر أن هذا النظام مما أراد الله وفرضه عليّ وعلى أمثالي حتى أكون مطيعًا لهذه الإرادة. أبدًا! ليس في هذا من أثر في الإسلام، فالمجتمعات من صنع البشر.

IV- الإسلام والتطور

والنقطة الثانية التي يمكن أن تكون نقطة ختامية في بحثنا في هذه الليلة حتى نترك المجال للأخ الكريم الدكتور صبَّاح[6] لكي يترجم خلاصة من المحاضرة في هذه الأمسية الطيبة. النقطة

الأخيرة هي الجواب عن سؤال طالما يوجه إلينا، وهو أنك تقول إن الإسلام يريد أن يصون الفرد فيهتمّ بالمجتمع ويضع خطوطًا عريضة لتكوين المجتمعات. كيف يحلّ مشكلة التطور؟

فالمجتمعات كما نعرف تتطور حسب تطور البشر، وحسب ارتفاع مستوى ثقافة البشر. كيف يمكن لدين أن يعطي تعاليم ثابتة تنسجم مع تطور المجتمعات؟ هذا الجواب عن هذا السؤال أذكره في هذه المحاضرة وإن كان سبق مني الحديث فيه في غير هذه المحاضرة.

فنحن قبل هذا يجب أن نسأل ما هو التطور؟ هل التطور يتكون من خلقِ شيء جديد في العالم؟ أو إعدام شيء موجود في الكون! كلا. لا شيء يوجد ولا شيء يُعطى. التطور هو تفاعل بين الإنسان والعالم. الإنسان يُجرّب ويطالع ويفكر، فيأخذ ويكتشف شيئًا جديدًا. حينما يكتشفه يُسخِّره، فيطوّر حياته ويطوّر مجتمعه. يعرف الكهرباء، فيطوّر مجتمعه على أساس تسخير الكهرباء. فالتطور تفاعل جديد أو تفاعل مستمرّ بين الإنسان وبين العالم. ليس من جديد في العالم، وإنما تفاعل جديد، قراءة جديدة للكون، تعمق جديد في كتاب الكون، هذا هو التطور. ما دام الأمر كذلك فكون القرآن الذي هو حسب رأي الإسلام، كلام الله، وكلام لا حدّ لثقافة قائله، فقائل الكلام هو الله حسب رأي الإسلام الذي لا حدَّ لثقافته. لا تُحدّ ثقافة الله بعصر دون عصر، وبقرن دون قرن بل هو يعرف كلّ شيء، أعماق الأشياء وظواهرها، ظاهرها وباطنها، معلومات الإنسان في القرون الماضية وفي القرون القادمة، يعرف الله سبحانه وتعالى كلّ شيء. فحينما نعرف أن ثقافة القائل لا حدّ لها فبإمكاننا أن نفهم من كلام الله في كلّ عصر شيئًا جديدًا، كما أنك تتمكن أن تفهم من الكون الواحد. هل الكون تغير اليوم عن الكون الذي كان قبل ألف سنة أو خمسة آلاف سنة؟ الكون ذات الكون ولكن أنت درست شيئًا جديدًا وتعمقت بصورة جديدة. أيضًا القرآن، كلام الله، يحقّ لك أن تتعمق في هذا الكلام بقدر استطاعتك فأمس كنت تفهم من القرآن شيئًا، واليوم تفهم منه شيئًا آخر. وهكذا بإمكانك أن تتعمق في كلام الله كلّما تعمقت في الكون. فأمامنا عوامل ثلاثة. الإنسان والكون وبتفاعلهما تتطور المجتمعات.

أمامنا عنصر ثالث وهو كلام الله، فبإمكانك أن تتفاعل مع كلام الله كما تتفاعل مع الكون، وحينئذٍ يكون بينك وبين كونك وتطور مجتمعاتك وكلام الله تنسيق منظم. لا أحبّ أن أذكر أمثلة على أنواع جديدة من الفهم لكلمات الله لأن المقام يطول. فإذًا، بإمكان الإسلام أن يعطي تعليمات واسعة وخطوطًا عريضة لتكوين المجتمعات، وأنت تطوِّر داخل هذا الإطار وتفهم أشياء جديدة على ضوء

ثقافتك، وتقدم تجربتك حتى تكتشف فروعًا وتفاصيل جديدة لتكوين المجتمع الذي تريد أن تكوّنه. وهكذا تتمكن أن تعيش في مجتمعك المتطور مهما أردت وكيفما أردت وفي أيّ وقت أردت.

هذه خلاصة من الأفكار العامة الموجزة عن الجانب الاجتماعي للإسلام، ولا شكّ أن للبحث تفاصيل كثيرة أرجو أن نتوفق في لقاءاتنا القادمة أو في السنين القادمة في هذه الأماكن المعدة للتفاعل الفكري، وأن نستمع إلى مناقشات الشباب. وشكرًا مرة أخرى لشبابنا أعضاء مؤسسة الطلبة المسلمين في دكار.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

العدالة الاقتصادية والاجتماعية في

الإسلام وأوضاع الأمة الإسلامية اليوم

بسم الله الرحمن الرحيم

1- إن القسم الأول من العنوان أُشبع درسًا وتحليلًا من قِبل كبار العلماء والمفكرين، لذلك فإن الحديث في هذه المحاضرة يتّجه إلى الجزء الثاني من العنوان مع التذكير ببعض النقاط التي تجعل للعدالـة في الإسلام طابعًا مميزًا.

الأولى، إن العدالة في الإسلام في كافة المجالات، وفي الحقل الاجتماعي والاقتصادي بوجه خاص، تعتمد على الإيديولوجية الإسلامية، بل إنها –أيّ العدالة- ركن من أركانها، وذات تأثير كبير على الأركان الأخرى. فالعدالة في جميع مجالات حياة الإنسان، الفرد والجماعة، تبدو في القرآن الكريم كنتيجة للعدالة الكونية.

إن الكون في الرؤية الإسلامية قائم على أساس العدل والحقّ، ومن نتائج هذه الرؤية في منطق القرآن الكريم أن الإنسان الذي يشعر بالرسالة ويرغب في النجاح، عليه أن يكون عادلًا في سلوكه منسجمًا مع الكون، وإلّا فهو جسم غريب في هذا الوجود، مرفوض وفاشل يُطوى في النسيان والإهمال. وهذا المبدأ ينطبق على الفرد وعلى المجتمع على السواء.

ولعلّ أبرز الآيات التي تؤكد هذا الرابط في القرآن الكريم هي ما ورد في سورة الرحمن: {**والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان**} [الرحمن، 7-9].

ثم إن العدالة من أبرز الصفات الثبوتية الإلهية، وهي بالتالي تنعكس على الكون كلّه، لأن العلّة في رأي الفلاسفة حدّ تام للمعلول، والمعلول حدّ ناقص للعلّة.

هذا مضافًا إلى أن الوصف القرآني لله هو: القائم بالقسط، وهذا يعني أن العدل الكوني هو مفهوم القيام الإلهي بالقسط، دون حاجة إلى استنتاج فلسفي أو تحليل علمي.

والحقيقة أن هذا الأسلوب هو الطريق الشائع المعتمد في القرآن الكريم، حيث إنه يطرح النتائج التربوية للحقائق والوقائع، دون الوقوف أمام تحديات الحقائق وتحليل أبعادها، ودون الدخول في تاريخ الوقائع وتفاصيلها.

وخلاصة القول، إن العدالة الكونية التي هي رؤية إسلامية، وهي أيضًا نتيجة الإيمان بعدالة الخالق، هذه العدالة الكونية تضع القاعدة الثابتة للعدالة في حياة الإنسان الفردية والجماعية، اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا وغيرها.

ومن جهة ثالثة، فإن الباحث في أصول الدين الإسلامي وفي أسس العقيدة، يشاهد بوضوح أن المدخل الأصلي –لإثبات ضرورة إرسال الرسل للاستدلال على ثبوت الميعاد والحساب-، إن المدخل الأصلي هو العدل الإلهي، مما يوضح مدى أهمية العدل في أسس العقيدة الإسلامية، ومدى تأثير هذا المبدأ، حسب التوجيه التربوي في سلوك الإنسان عامة، وفي عدله الاجتماعي والاقتصادي عند فرده ولدى مجتمعه بصورة خاصة.

الثانية، إن المعادلة القرآنية العامة التي تؤكد مساواة الإنسان لعمله في الآية الكريمة: **{وأن ليس للإنسان إلا ما سعى}** [النجم، 39]، إن هذه المعادلة قائمة في موضوع العدالة أيضًا، بحيث إن العدل يساوي وجوده وجود الإيمان، وأن الإيمان لا وجود له بدون سلوك الإنسان لتحقيق العدالة: **{أرأيت الذي يُكذِّب بالدين * فذلك الذي يدعُّ اليتيم * ولا يحضُّ على طعام المسكين}** [الماعون، 1-3]، وهذا المبدأ يعبّر عنه الحديث النبوي الشريف بعبارة أخرى: ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعانًا وجاره جائع.

ومئات الأحكام الإسلامية التي تُدخل العدالة الاجتماعية والاقتصادية في صميم العبادات وضمن شروط صحتها، تعكس بوضوح أن هذين المبدأين ليسا حكمين فرعيين، ولا واجبين

عاديين، بل إنهما مبنيان على أصول العقيدة والإيمان، لا ينفصلان عنهما، ولا يعترف الإسلام بوجود إيمان لا يثمر العدالة في حياة الفرد والجماعة.

ومن هنا تصبح العدالة الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام عميقة، دائمة وشاملة، لأنها ممتزجة مع كيان المؤمن، نابعة من ذاته لدى فرده وفي جماعته.

الثالثة، إن الإسلام في وضعه لمبدأ العدالة، يرسم لها أبعادًا واضحة تمنع الميوعة، ويقدِّم لها ضمانات تمكِّنها من التطوير والتصاعد حتى اللانهاية، وهذه الصفة من الأهمية بمكان.

فالترابط المتقابل بين مسؤولية الفرد ومسؤولية الجماعة لأجل تحقيق العدالة، هو من الأبعاد المرسومة لها. إن الفرد مسؤول عن سلامة المجتمع حسب مبدأ كلّكم راعٍ، وكلّ راعٍ مسؤول عن رعيته، ولأنه مكلّف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولأن كلّ ما يملك من أموال وطاقات وتجارب وحتى الصحة والقوة الجسدية، إن كلّ ما يملك ليس ثمرة جهده لشخصه، بل شارك في تكوينه الآخرون، من معاصريه ومن الذين سبقوه، فمثله كمثل الشجرة المثمرة، يحمل الثمرة غصن منها، ولكن الشجرة بأغصانها وأوراقها وجذورها ساهمت في إنتاج الثمرة، واستفادت من الهواء والشمس والماء والأرض وغير ذلك من العوامل الطبيعية، ومن الجهود البشرية المتنوعة.

وبكلمة، إن الفرد أمين على ما يملك، مسؤول عنه أمام المجتمع، بل أمام الماضي والمستقبل، وهذا التحليل يؤكد أن الفرد لا يحقّ له أن يحتكر ما عنده، ولا أن يتلفه أو يهمل في شأنه، ولا يجوز له أن يُسيء إلى نفسه أو يؤذيها، فكيف بالانتحار! إن كلّ هذه وأمثالها في الحقيقة تَعدٍّ، أو تفريط في حقّ الجماعة. كما وأنها تُلقي أضواء على كلمة الاستخلاف الواردة في القرآن، واعتبار الأموال أمانة: **{وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه}** [الحديد، 7].

وفي مقابل المسؤولية الفردية عن سلامة المجتمع، تأتي مسؤولية الجماعة عن الفرد، والأحاديث وفتاوى الفقهاء تثبت مسؤولية القرية بجميع أبنائها عن موت شخص جوعًا. والحقيقة إن المسؤولية موجودة مع أي نوع من أنواع الموت وعن الأضرار والإيذاء والإساءة إليه. وفي الحديث إن أهل القرية يبرؤون من ذمة الله ورسوله، وذلك لأنهم خانوا أمانة الله، ونقضوا عهد الله عندما لم يؤدوا مسؤوليتهم تجاه الفرد هذا.

وما يُقال عن القرية، جاز في المدينة وفي الأوطان وفي أرجاء بلاد الأمة التي تشكل وحدة متكاملة.

وعليّ (ع) يسأل مستنكرًا: أأبيتُ مبطانًا وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى... ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع؟

أمّا الأفراد، بعضهم بالنسبة إلى بعض، فالرؤية التي نكتشفها من الآيات القرآنية ومن الروايات، إنهم جميعًا يشكلون جسمًا واحدًا، وإذا اشتكى عضو يتألم الآخر. وإن أموالهم ونفوسهم وعقودهم وعهودهم، هي للجميع، وهذا بُعدٌ آخر يلقي أضواء جديدة على المجتمع وتكوينه، يُكشف من الآيات الكريمة التالية: **{لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل}** [النساء، 29]، **{ولا يغتب بعضكم بعضا}** [الحجرات، 12]، **{بعضكم من بعض}** [آل عمران، 195]، وكلمات العقود والعهود في القرآن.

ويشير القرآن الكريم في مواضيع عديدة إلى المجتمع الذي تسوده العدالة وإلى نتائجها، وإلى الأخطار التي تحيط به حال عدم توفرها، وذلك لأن العدالة تمكّن الجميع من السعي البنّاء ومن العطاء، فيعود الخير إلى الجميع أيضًا، بينما غياب العدالة عن المجتمع ينجم عنه حرمان قسم كبير من المجتمع من بعض حقوقه أو كلّها، ومن بعض كفاءاته أو كلّها، ويعمّ الحرمان عند ذلك كافة أبناء المجتمع، بل المجتمع نفسه. ناهيك عن الأمراض والأخطار التي لا تقتصر على الفئات المحرومة بل تصيب الجميع، كالأخطار المادية التي تحصل من سوء التغذية، ومن عدم توفير شروط العيش الصحيح، وكذلك الأخطار الأخرى التي تحدث في نفوس المحرومين، وتنتهي عند تركها إلى الانفجارات في المجتمعات. فلندرسْ بعض هذه الآيات: {**ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم}** [محمد، 38].

{وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون} [الأنفال، 60].

{وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة} [البقرة، 195].

إن المتأمل في هذه الآيات الكريمة الواردة في الإنفاق، الإنفاق بمفهومه القرآني هو المساهمة الشاملة من كلّ ما أنفق الله على الإنسان من مال أو فكر أو سعي ونضال؛ إن التأمل في

هذه الآيات يؤكد أن عودة الخير للمنفق وابتعاده عن الظلم وعدم وقوعه في التهلكة، ليست منحصرة في الجزاء الإلهي الذي ينتظر الإنسان يوم القيامة، والذي يسمّيه القرآن بالجزاء الأوفى، بل إنها تضمّ النتائج الأخروية، وهذه تسمّى بالجزاء الأدنى والعذاب الأدنى.

وبكلمة: إن من يسعى لتوفير فرص الحياة للآخرين، كان الساعي فردًا أو جماعة، وكان من يسعى لأجلهم فردًا أو جماعة، يساهم في الحقيقة في عودة الخير إلى نفسه، ويبعد عن نفسه أيضًا خطر الظلم والهلاك، وذلك لما يترتب على هذه المواقف من نتائج وآثار اجتماعية أصبحت اليوم من الواضحات.

وإذا لاحظنا أن الآية الأخيرة وردت في سياق آيات الجهاد، نجد الانسجام التام بين الإنفاق بالنفس الذي يؤدي إلى الاستشهاد، وبين عدم إلقاء النفس في التهلكة الناجمة عن طغيان العدو أو ظلم الطغاة، وترتفع الشبهة المطروحة حول معنى الآية الكريمة.

والبعد الآخر الخاص للعدالة الاقتصادية والاجتماعية في المدرسة الإسلامية، هو أن درجة العدالة تتفاوت، والمراحل التي يمرّ بها تنفيذها في المجتمعات تبدو وكأنها غير متناهية، شأنها شأن سائر الأهداف الدينية اللامتناهية.

ذلك لأن العدالة في الواقع وسيلة لإعطاء فرص الكمال للإنسان وليست غاية بحدّ ذاتها، يقف الجهد عند تحقيق أولى مراحلها، ونتيجة هذه الرؤية تبدأ العدالة بدرجة من التحسس الفردي، ثم تنمو وتتحول إلى الجهد المتزايد لدى الفرد من جهة وتسري إلى الجماعة المتمثلة بالسلطات الوطنية من جهة أخرى، ثم تنمو العدالة في المجتمع باتجاه شيوعها لدى الأفراد جميعًا وباتجاه العمق النوعي.

فكما أن التحسس يصبح سعيًا وعملًا، كذلك فإن العدالة في حدّها الأدنى –أي درجة توفير الحدّ الأدنى لفرص الحياة- تتحول إلى خلق درجات أكثر من الفرص، حتى المساواة بين المزيد من أبناء المجتمع الواحد، وبعد ذلك يأتي دور التكافل والتضامن والتضحية، حتى نصل إلى دور الإيثار. مع الانتباه إلى ألّا يتحوّل هذا التنازل إلى نسيان حقّ الآخرين من الأقربين، كما يحصل عادة عندما يبالغ الفرد في السخاء، ولعلّه المقصود من الآية الكريمة: **{ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملومًا محسورًا}** [الإسراء، 29].

ولنُشِرْ لدى تعداد الأبعاد الإسلامية للعدالة الاقتصادية والاجتماعية إلى الناحية الفنية التي أخذت خلال المؤتمر الاهتمام المطلوب، فلنُشِرْ إليها إشارة خاطفة، إكمالًا للصورة في هذه المحاضرة:

إن تحريم الربا يكشف عن عدم رضا الشرع الإسلامي بإنجاب رأس المال المتجرّد عن الجهد، كما وأن ما ورد في الفقه من عدم صحة وضع حصة خاصة لوسائل الإنتاج، (وكانت البقرة أو الآلات البدائية) دليل على أن وسيلة الإنتاج لا يمكنها أن تشارك في الأرباح. أما العمل، وهو في رأي الإسلام العنصر المفضل من عناصر الإنتاج، فيحقّ له الاشتراك في الأرباح دون الخسائر، كما يحقّ له أخذ مبلغ ثابت بعيدًا عن المغامرة، ذلك الذي نسمّيه بالأجرة.

ثم إن مزيدًا من التأمل في أحاديث الزكاة وما ورد عن الأئمة والسابقين من الفقهاء، إن المزيد من التأمل يُضيف بعدًا جديدًا للعدالة يُقرأ بوضوح في ضمان الفقر، سوى الفقر الناتج عن الكسل، وضمان الشيخوخة والطفولة والمرض، بصورة خاصة ضمان الطوارئ، كابن السبيل والغارمين وفي الرقاب وكلّ ما في سبيل الله وغير ذلك.

هذا البعد هو قبول الإسلام بمسؤولية المجتمع التامّة عن الحالات الاجتماعية الصعبة، الدائمة منها كالشيخوخة، والعجز الناجم عن النقص، أو الطارئة المؤقتة.

لا صيانة للحرّيّة إلا بالحرّيّة[8]

بسم الله الرحمن الرحيم

رحمك الله يا أبا جميل، لقد كنت فذًّا عبقريًّا في موتك، بعد ما كنت فذًّا عبقريًّا في حياتك.

متَّ وأنت في الساح، سقطت في ساحة الصحافة، ووقعت صريعًا في محرابها.

فالصحافة أيّها الإخوان محراب لعبادة الله ولخدمة الإنسان، والصحافة أيضًا إذا ما قامت بواجبها فهي مخدع للشيطان.

الصحافة من أهم ميادين الجهاد وأدقها، فالصحافة تكوّن الرأي العام، وتساعد في خلق الثقافة العامة، فهي بدورها تحاول أن تهيئ غذاءً للروح، تنميها وتخلق مرحلة جديدة من الروح، تناسب مستوى ثقافة المجتمع. فالروح أيّها الإخوان، وإن قلنا إنها ليست جسمانية الحدوث، فلا شكّ أنها تنفعل انفعالًا كليًّا بالثقافة العامة، وتعطي الثقافة العامة صورة جديدة للروح تختلف عن سائر صورها. فالصحافة بدورها، في تكوين الثقافة العامة وتوجيه العاطفة للجماهير، تعطي صورة جديدة للروح، بل قُل تكوّن مرحلة جديدة من النفس الإنسانية.

ومن ناحية ثانية، فالصحافة بمراقبتها وتوجيهها للمجتمع وأعمدة المجتمع، بتوجيهها للدولة وللحكومة وللمؤسسات، بمساهمتها لتنظيم الاقتصاد والسياسة، تلعب الصحافة بهذا دورًا كبيرًا في تنظيم مجتمع الإنسان، بيئة الإنسان، خادم جسد الإنسان. فالصحافة تكوّن المرحلة الجديدة من الروح

من ناحية، وتساعد في خدمة بدن الإنسان من ناحية أخرى. فبإمكاننا أن نقول إن الصحافة هي إحدى دعائم تكوين الإنسان المدني.

لا أريد أن أمدح الثقافة أمام رجالها وفي بلدها وأمام جماهير قرّائها، ولكنني أريد أن أستخلص من هذا البيان نقطة، أذكّر نفسي وإخواني بحساسية مقام الصحافة. فالصحفي بإمكانه أن يخلق المجتمع الصالح؛ وهو حينما يكتب كلمة أو ينشر صورة أو يبرز عنوانًا أو يفسّر ويكتب تفسيرًا للأحداث، يعرف حينما يعمل هذا أنه يكوّن الإنسان في المرحلة الجديدة، فبإمكانه أن يكون أبًا مرشدًا مخلصًا صديقًا، وبإمكانه أن يكون خائنًا محرّفًا للكلم عن مواضعه.

فالصحافة من أهم ميادين الجهاد، ومن أسبق أعمدة تكوين الإنسان المدني. هذا المقام للصحافة يفرض على الصحفي واجبًا تجاه المجتمع، ويعطيه حقًّا على المجتمع. حقّه على المجتمع هو واجب المجتمع أمامه، وواجبه للمجتمع هو حقّ المجتمع عليه. حقّه على المجتمع أن يعطي المجتمع له الحرّيّة. نعم، الحرّيّة ويصونه عن أسباب الفساد والانحراف.

أما الحرّيّة، أيّها الإخوة كما تعلمون، هي أفضل وسيلة لتجنيد طاقات الإنسان كلّها، فخدمة الفرد أيّ فرد في مجتمع لا تسوده الحرّيّة، خدمة هذا الفرد جزء من طاقاته لا جميع طاقاته. ولا يمكن للإنسان أن يجند جميع طاقاته، وينمي جميع مواهبه إلّا إذا أطلقت له الحرّيّة. فالحرّيّة أفضل وسيلة لاستثمار طاقات الفرد ولاستخدام جميع طاقات الفرد في خدمة مجتمعه. والحرّيّة أيضًا اعتراف بواقع الإنسان، بكرامة الإنسان، حسن الظن بالإنسان؛ بينما عدم الحرّيّة إساءة للظن بالإنسان، وتقليل لكرامة الإنسان وشكّ دائم في صلاحية الإنسان. لا يقوم بتحديد حريات الفرد إلّا من كفر بفطرة الإنسان، {**فِطرت الله التي فطر الناس عليها**} الروم، 30، الفطرة التي هي النبي الباطن للإنسان.

فالحرّيّة خدمة للصحفي، حق للصحفي على المجتمع ولكن الحرّيّة خدمة للمجتمع بدوره. ولا صيانة للحرّيّة إلّا بالحرّيّة، فالحرّيّة بعكس ما يقال لا تُحدّ أبدًا، وحدود الحرّيّة إلى اللانهاية. فالحرّيّة لا تُحدّ حتى عند حدّ حرّيّة الآخرين على حدّ التعبير الشائع. بل الحقيقة إن الحرّيّة الكاملة هي الحق، هي من الله، لا حد لها.

ولكن الحرّيّة الحقيقيّة هي الحرّيّة من أسباب الضغط الخارجي ومن أسباب الضغط الداخلي. فعلى حدّ تعبير الإمام: من ترك الشهوات كان حرًّا. فإذا نريد أن نبيّن ونحدد الحرّيّة، نفسّرها بأن الحرّيّة تحرر من الغير وتحرر من النفس. وإذا فسرنا الحرّيّة بهذه الطريقة بإمكاننا أن لا نعتقد بوجود حدّ للحرّيّة، لأن الحرّيّة التي تصطدم بحرّيّة الآخرين عبودية للنفس، ومتابعة للشهوات. فالحرّيّة التي تحصل من الجهاد تحصل على حدّ تعبير النبي الكريم بالجهاد الأصغر، وهو الجهاد مع الأجنبي المستغلّ المسيطر، ومع الجهاد مع النفس الجهاد الأكبر، التحرر من الشهوات. ولعلّ أفضل طريقة لتكريس التحرر من النفس أسلوب النقد الذاتي مع مشاركة المصلحين في الرأي.

فحقّ الصحفي على المجتمع تأمين الحرّيّة له، وفي هذا الحقّ خدمة للمجتمع أيضًا. ومن حقّ الصحفي أيضًا أن المجتمع يصونه ويمنعه من بواعث الضغط المالي والمغريات والضغط الروحي، وبهذا فقد خدم المجتمع نفسه وأدّى دوره واغتنم جميع طاقات خادمه ومجاهده. فالحرّيّة، هذه الطريقة المثلى لتجنيد طاقات الصحيفة ولطاقات كلّ خادم، هي الطريقة المثلى لأداء هذا الحق.

فالصحفي لا يُهان، والصحفي لا يُحارب بالضغط. والصحفي لا يُحارب بالفقر والصحفي لا يُغتال.

أما الاغتيال فهو من أسوأ الأساليب وأفشلها وأجبنها في خدمة الهدف، أيّ هدف كان. ثم إن الاغتيال ظاهرة اجتماعية خطرة أيضًا، لأن المحاكمة والحكم والتنفيذ بيد شخص واحد. فإذا انفتح هذا الباب فلا يمكن للمجتمع أن تسوده العدالة، لأن من يجب أن يحكم بالعدل، يبتعد عن الأجواء التي يحاكم المجرم فيها المُغتال ويحكم عليه بالإعدام، ويؤكد وينفذ ما حكمه في هذا. ولهذا، الواجب على حماة المجتمع، الواجب على المجتمع، وعلى حماة المجتمع لو كان للمجتمع حماة أن يعالجوا ظاهرة الاغتيال علاجًا قطعيًّا جذريًّا.

رحمك الله أبا جميل،

لقد متَّ، ولكن الموت أبدًا ليس فناء، ولا انعدامًا. الموت عند المؤمن تحوّل من الأرض إلى السماء، ومن المحدودية إلى اللامحدودية. الموت توسّع، الموت تحطيم للقيود. ألسنا نؤمن بالقرآن الكريم الذي يقول: **{الذي خلق الموت والحياة}** [الملك، 2]! فالموت خلقٌ لا انعدام، الموت خُلِق، وخُلِق قبل الحياة فلا حياة إلّا بعد الموت.

فظاهرة الموت ثم الحياة حقيقة التحول والتطور والتكامل. فلا تحوّل إلّا مع الموت عن المرحلة الحاضرة، ولا تكامل إلّا مع ترك الإنسان للمرحلة التي يعيش فيها. فالبذرة الجامدة إذا ما ماتت لا يمكن أن تتحول إلى نبات، والنبات إذا ما مات عن نباتيته، لا يتحول إلى حيوان ثم إلى إنسان. والإنسان، حتى الإنسان الحيّ حينما يفكر تموت خلايا جسمه وتتفجر خلايا جسمه لكي تتحول إلى الفكرة. فتحوّلُ الخلايا الجسدية في الإنسان إلى الفكرة، لا يمكن أن يكون إلّا بعد الموت من الحالة الحاضرة. فالموت سبيل الكمال، والموت مقدمة للتحوّل، والموت خلود، والموت سبيل لانكشاف الحقيقة.

رحمك الله أبا جميل، وبعث لأهلك وذويك وزملائك ومحبيك ومواطنيك ووطنك، الصبر الجميل، وألهمهم أن يخلقوا من موتك حياة فضلى.

والسلام عليكم.

لبنان والحضارة الإنسانية[9]

بسم الله الرحمن الرحيم

في هذا اللقاء مع رجال الإعلام نتذكر أن الإعلام في تجربتنا المريرة كان له دور مؤثر. بإمكاننا أن نقول إن أحد أسلحة الحرب النافذة كان الإعلام. هناك نظرية في الحرب اللبنانية تقول إنها كانت حرب الإعلام، وانعكست على رجال السياسة من خلال شحن النفوس، ومن خلال التزام الساسة بمشاعر الجماهير.

وبطبيعة الحال، فإن أولئك الذين حاربوا حتمًا اقتنعوا بأن حربهم لهدف وطني. لكن الجو في الشرق الأوسط وفي هذه الفترة بالذات، والجو في لبنان وفي هذه السنوات بالذات، كان جوًا دوليًا تهتم به القوى العالمية وتتصارع فيه على بقعة صغيرة، وإسرائيل ذات القوة السياسية والتآمرية والإعلامية الدولية التاريخية كانت لها مصلحة لكي تنتقم من العرب في لبنان. ومن الواضح أن حرب 73 كانت انتصارًا عسكريًا للعرب، ويكفي أن نقارن بين حربي 67 و73 حتى ندرك أن الوضع العسكري في الحربين كان مختلفًا جدًا أحدهما عن الآخر. إلى جانب الحرب العسكرية هناك الحرب السياسية، والتي بدأت بمقاطعة الدول الأفريقية لإسرائيل والمقاطعة الأوروبية وحرب البترول والعملة. وفي النهاية كانت حربًا إيديولوجية لأن البحث في الأمم المتحدة تركز حول طرد إسرائيل لتسكت، فأرادت أن تضرب العالم العربي من خلال لبنان باعتبار أن لبنان بوجوده كان يتحدى إسرائيل من خلال التعايش.

إذًا، هذه المنطقة كانت تتحكم فيها القوى الخارجية أكثر من رجالها، وبمؤازرة رجال الإعلام الوطنيين برزت في الأفق عناصر وأقلام وأصوات ساهمت في الحرب، إذا ما قلنا إنها أسست الحرب.

أريد أن أنطلق من هذه النقطة إلى هذا اللقاء الذي أرجو أن تكون له مساهمة مؤثرة في إعادة بناء الوطن، فلقد تبين أن دور الإعلام كبير وفي لبنان دوره أكبر وفي ما نشاهد من الأجواء يمكن أن نقول إن دوره مطلق لأنه مع وجود التشنج في النفوس، وعدم القناعة في التعايش لدى الكثيرين لا يتمكن أن يفرض على اللبنانيين بناء الوطن والتعايش بأية قوة في العالم. وإذا أراد اللبنانيون أن يعيشوا وأن يؤسسوا وطنًا، وإذا أراد اللبنانيون وبإرادة موحدة العودة إلى الوطن الواحد فلا يستطيع أن يمنعهم أحد. فالبناء الحقيقي للبنان الوطن الواحد ليس مرهونًا بواقع عسكري ولا بقوانين حديثة أو قوانين دستورية أو اقتصادية، بمقدار ما هو مرهون بإرادة اللبنانيين وبأثر رجال الإعلام بهذه الفترة.

إنني أتصور أن النظرات التي تنعكس من رجال الإعلام على الأوراق، أوراق الصحف هي أساس بناء لبنان الجديد الواحد، لأن هذا اللبنان أصيب بمحنة من جراء تفرق النفوس وتمزق الإرادة الشعبية، والنفوس تفرقت، والإرادة تمزقت نتيجة معلومات وأجواء إعلامية مسيطرة على الناس، فإذا تمكّنا أن نعيد القناعة إلى النفوس ببناء مستقبل خالد بنينا لبنان، ولا خطر عليه إطلاقًا لأن لبنان ضرورة حضارية وهذا ما قاله الكثيرون.

لبنان في هذه المرحلة بالذات من تاريخ العالم أصبح ضرورة قصوى للعالم، لأننا أولًا نتيجة لتوسع المواصلات نشعر أن العالم في أواخر القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين يعيش كأنه بلد واحد، فأقصى مسافة بين بلد وآخر في العالم لا تتعدى اليوم مسافة الانتقال بين بيروت وطرابلس. إذًا، هذا العالم المترابط الذي يضم الأديان والتعايش بين أبناء العالم من أجل استمرار الإنسان في بناء الدولة الواحدة الكونية مرتبط ومتأثر إلى حد كبير بنجاح صيغة لبنان التعايشية.

أكثر من ذلك، إن الحوار الأوروبي-العربي لولبه الحوار الإسلامي-المسيحي، وعلى نتيجة هذا الحوار تتعلق آمال المغتربين في العالم بعدما فشلت تجربة الوحدة الآسيوية-الأفريقية. فالعالم أمام القوتين العظميين جرّب من خلال اللقاءات الأفرو-آسيوية والوحدة الأفريقية والسوق الأوروبية، والآن يجرب من خلال اتحاد البرلمانيين في العالم حتى يجد ضمانًا للإنسان أمام التحالف بين القوتين العظميين. فأيّ بلد في العالم وأيّ إنسان وأيّ مؤسسة تضمن سلامتها إذا اتفقت أميركا والاتحاد السوفياتي في ما بينهما. إذًا، العالم يتطلع إلى قوة أخرى تقضي على هذا الاحتكار من الوفاق.

كانوا يحلمون في بروز الصين فلم يتحقق الأمل، أما الحوار العربي-الأوروبي، بما لأوروبا من خبرة وتجربة وموقع وبما للعالم العربي من تراث حضاري وثروات وموقع جغرافي، فيضع أمام العالم اليوم أملًا كبيرًا ببروز قوى سياسية لولبها الحوار المسيحي-الإسلامي، فإذا سقطت تجربة لبنان سوف تظلم الحضارة الإنسانية لمدة 50 عامًا على الأقل. لذلك، نقول إن لبنان في هذه الفترة ضرورة حضارية أكثر من ذي قبل... لذلك، فليسمح اللبنانيون لنا بأن نقول إن التعايش ليس ملكًا للبنانيين لكنه أمانة في يد اللبنانيين ومسؤوليتهم وواجبهم وليس حقهم فحسب، وهنا يأتي دور الإعلام المقنع وعظمة هذا الدور. فبماذا يرضي اللبناني نفسه أمام ما قدم من شهداء، وبكل أسف، شهداء على طرفي الجبهة وأبناء لبنان قُتلوا هنا وكلّ منهم يعتقد أنه قاتل في سبيل لبنان؟ بماذا تتعزّى الأم اللبنانية، وترتضي الأجيال؟ ويقبل الجيل القادم ما قدّم هذا الجيل من الضحايا... عشرات الألوف من خيرة الشباب سقطوا.

لهذا، قلنا إننا نتمسك بوحدة لبنان ونحافظ عليها، وعلى استقلال لبنان، وعلى انسجام لبنان مع المنطقة وعلى صيانة هذا الكيان الذي هو أمانة للحضارة العالمية. لذلك، أنا أشعر بسعادة بالغة للقائي مع الإخوان من رجال الإعلام وأؤكد لهم أن ما عبّر عنه النقيب حول هذا المكان فسماه بالمحراب، بإمكاني أن أقول إنكم في مكتبكم تُصلون في محراب الإعلام بأقلامكم وتضيئون بهذا الزيت مشعل الوحدة في مستقبل هذا الوطن، وهذا يضفي على دوركم الأهمية القصوى.

ليس المستقبل أن ينطلق المحرر من مشاعره أو مصالحه لا سمح الله، وإنما المستقبل يفرض عليه أن يكون دقيقًا في كلّ كلمة يكتبها، ومع كلّ عنوان ومانشيت، ومع كلّ تحليل أو صورة يضعها، وفي أيّ مكان. لذلك، إذا [المحررون] أحسّوا أنهم في المحراب شعروا بقداسة مسؤوليتهم في مرحلتهم القادمة. أتصور أن التشنج في العقول والنفوس بحاجة ملحّة إلى المعالجة، فيجب إعادة إيضاح الأخبار وإعادة درس الأشخاص الذين وضعوا في مواقع غير مواقعهم من خلال الإعلام الموجه للحرب. أنتم أخبر بمهمتكم وهي من اختصاصكم وليس لي إلاّ أن أدعو الله لتوفيقكم، وأن أضع نفسي ومعلوماتي وخبرتي أمام أسئلتكم إذا أردتم.

س: هل تعتبرون أن صيغة 1943 سقطت، وهل في ذهنكم صورة جديدة للبنان المستقبل تكون منيعة وصامدة؟

ج: في الواقع إن عدم مناعة الصيغة اللبنانية أمام ما حدث ليس اتهامًا للصيغة، لأن عوامل ما حدث كانت تتخطى نطاق الإرادة اللبنانية. ونحن نعرف أنه لا تُنتج في لبنان ولا تُصنع رصاصة، وكنا نشاهد أن سيل السلاح يتجه نحو لبنان، من أين يأتي هذا السلاح، ولماذا؟ نحن نعرف أن السلاح في العالم اليوم بضاعة سياسية وليس تجاريًا محضًا، وكان هذا واضحًا في استمرار المعركة مدة سنتين. نحن نقول إن العوامل التي عصفت بلبنان فهزّت صيغة 1943 هي أكبر من مناعة أيّ بلد في العالم، وفي تصوري أن لبنان لم يسقط لأنه لا تزال مؤسسات الدولة غير مبنية ونحن مجتمعون هنا. لا أدافع عن النظام الذي كان، ولكن أدافع عن صيغة المجتمع، أيّ مسألة التعايش في ظل الديموقراطية. كنا من الناقدين للوضع السابق، أما بالنسبة إلى المستقبل فهناك أولويات لا يمكن أن تُمسّ وعلى اللبنانيين من خلال الحوار أن يختاروا صيغة تحفظ هذه الأولويات، وعلى قادة لبنان أن يختاروا، مع معرفتهم بما في نفوس اللبنانيين، صيغة لهذه الأولويات. ووحدة لبنان هي ميزة وجوده لكي لا يكون لبنان نسخة طبق الأصل صغيرة وميكروفيلم عن أيّ بلد آخر. اليوم إذا كان لبنان نسخة عن أيّ بلد، وإذا صنفنا حجم البلاد نجد أن لبنان هو ميكروفيلم عن الدول الكبرى. ولئلا يكون لبنان ميكروفيلمًا عليه أن يكون له ميزة خاصة، فهاتوا لنا ميزة غير التعايش. التعايش هو الميزة الحية على رغم ميزات لبنان في تاريخه وقوة أهله ومناخه، لكن هذه المزايا سابقة وليست عطايا مستقبلية.

النقطة الأولى: وهي نقطة التعايش، لا بدّ لكي تتكامل من أن يبقى للطوائف اللبنانية الحد الأدنى من وجودها الثقافي، وهذا لا يتم إلاّ عن طريق بقاء قانون الأحوال الشخصية كما هو، وليس عن طريق العلمنة. السبب في ذلك هو لأننا في قانون الأحوال الشخصية في حكم الزواج، والنهاية في حكم الميراث، تكملة للثقافة الوطنية. لا بد من وجود هذا القانون ولا نقصد بالعلمنة أكثر من ذلك، لأن لبنان دولة علمانية، إنها ليست منبثقة من حكم الله وحكم السماء، وليس رئيس لبنان ظل الله على الأرض، القانون اللبناني أيضًا علماني لأنه ليس نابعًا من القرآن أو الإنجيل.

النقطة الثانية: إن الرسالة اللبنانية في التعايش هي الحرية في لبنان، لأنه يمكن بقاء مجموعات حضارية تتعايش في وطن واحد على أساس الحرية. الفرد يمكن أن يفرض نفسه على وطنه، لكن فئة منافسة مع فئة أخرى متعايشة معها لا يمكن أن تفرض نفسها على الوطن.

النقطة الثالثة: هي الاحترام لحقوق المواطنين، أي العدالة التامة، العدالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، العدالة في التنمية.

س: هل سماحتكم مع إعادة توحيد منهاج التعليم واعتبار لبنان دائرة انتخابية واحدة، وهل هذا يساهم في رأيكم في إعادة اللحمة بين اللبنانيين؟

ج: أنا مئة في المئة مع وحدة المناهج التربوية والثقافية وأتمنى وحدة الدائرة الانتخابية في لبنان.

س: هل ستُعقد القمة الإسلامية–المسيحية، وأين أصبحت المساعي المبذولة على هذا الصعيد؟

ج: في الواقع أنا من المقتنعين والعاملين بجهد كبير في هذا السبيل، وفي تصوري أن هذه القمة على الأبواب، أنها فترة وجيزة لتبادل الآراء بالنسبة لورقة العمل ثم القمة.

س: هل تعتبرون الوثيقة الدستورية صيغة صالحة لحل الأزمة؟

ج: في الواقع إن الوثيقة الدستورية هي جدول أعمال للحوار السياسي ولم تكن اختيارات، لأنه ويا للأسف، عندما بدأ الوفد السوري يحاور الأطراف اللبنانية نتيجة لقرار العزل الخاطئ الذي صدر في بداية الأزمة اللبنانية، كان اللبنانيون لا يجتمعون وكان الحوار السياسي مستحيلًا، حتى في الحد الأدنى من الاختيارات. فكان الحوار في ذلك الوقت فوقيًا أيّ أن الرئيس فرنجية كان يتحدث مع الجبهة اللبنانية ثم يقدم إلى الوفد المفاوض المقترحات، والرئيس رشيد كرامي كان يتحدث أيضًا بدوره بعد الاتصال بجبهته ومن خلال الرئيسين (سليمان فرنجية ورشيد كرامي) وغيرهما كان يصل، بطبيعة الحال، الوفد المفاوض إلى ما يتناسب مع مشاعر الطرفين ومصالحهم. وهكذا وضعت هذه الوثيقة بعد الاتصال بالجانب الفلسطيني. ويوم صدور هذه الوثيقة تقرر أن تكون مقترحات يجتمع على أساسها أطراف لبنانية فتختار. وحتمًا إذا اجتمع اللبنانيون يتخطون جدًا ما ورد في الوثيقة الدستورية بخطوات وخطوات نحو بناء مستقبلهم، بهذا المعنى لا تزال الوثيقة

الدستورية صالحة، لأن تكون ورقة عمل أو جدول أعمال للحوار السياسي المستقبلي. وأحب أن أقول كلمة وأرجو ألا تحمل على محمل المجاملات، أنا أعتقد أن كلمة البطريرك خريش في عيد الميلاد وحدها تصلح لأن تكون ورقة للبحث السياسي المستقبلي، تصلح حتى أن تكون الخيارات، فليكن لنا وطن كما يرسمه البطريرك في رسالة عيد الميلاد الأخير.

س: **كيف تنظرون إلى الوضع في الجنوب وهل سيؤثر على الوضع العام في لبنان مستقبلاً؟**

ج: لأن مشكلة الجنوب اليوم هي ملخص للمشكلة اللبنانية وقد انتقلت إلى الأراضي الجنوبية. إن الحل هو في ذهاب قوة الردع العربية إلى الجنوب، وهذا الحل أمامه بعض صعوبات سياسية تعود إلى تهديد إسرائيل، وهناك مفاوضات مكلفة لمعالجة هذه النقطة، وإلى أن يتم هذا الحل، هناك محاولات واقعية لخلق المصالحة السياسية في الجنوب لعلها تخفف من الآلام عن الجنوبيين ريثما تصل قوة الردع العربية إلى الجنوب.

س: **هل تعتقدون أن لبنان في طريقه إلى التعافي؟**

ج: لبنان في طريقه إلى الشفاء، والتعافي، وإلى النهوض والتحرك. أما الانتكاسات فستبقى ضيقة ومحددة جدًا، والمثل على ذلك في انفجار العكاوي، بما كان في الانفجار من مآسٍ بليغة جدًا ومثيرة جدًا، وقد رُدّت من دون سبب ونتيجة لشحن في النفوس على أناس أبرياء، فقتل عشرات أيضًا ردًا على هذه الحادثة، ولكن لا الحادثة ولا ردودها كانت أكثر من زوبعة مرّت على لبنان. ولذلك، فإن لبنان في تصوري في طريقه إلى التعافي.

س: **إن الأزمة اللبنانية كان لها ارتباط وثيق بالوجود الفلسطيني في لبنان، فما هو تصوركم للواقع الحالي؟**

ج: حتمًا كان للوجود الفلسطيني في لبنان دور كبير في الأزمة اللبنانية، وحل الأزمة اللبنانية يجب أن يضم في فصل كبير إيضاح وتحديد العلاقات اللبنانية الفلسطينية. لكن أحب أن أؤكد أنه بوجود العلاقات المتينة بيني وبين قيادات المقاومة خلال المحنة كنت أعتقد وما أزال أنه إذا أراد اللبنانيون أن ينظموا علاقات لبنان معها فهذا أمر في منتهى السهولة والإمكان. تلك ليست قضية

مستعصية ويجب أن نتعاون لتمكين القيادات الفلسطينية من تطبيق الاتفاقات مع لبنان أو لتطويرها، كما عليهم هم أن يساعدوا أنفسهم ويساعدوا لبنان عن طريق عدم تدخلهم في الشؤون الداخلية، وعدم تحالفهم مع الأحزاب اللبنانية هنا وهناك، أيّ حزب كان، أن يساعدوا على إيضاح وتطبيق هذه المبادىء الواضحة في لبنان. وبكلمة، إذا أراد اللبنانيون والفلسطينيون وهذا ما أتمناه وما أعتقد به فليست هناك أيّة صعوبة تأتي إلى لبنان من جرّاء القضية الفلسطينية.

س: يبدو أن آراء جميع القادة تدل على أنه ليس هناك خلاف على مبدأ التعايش، ولكن على صيغة التعايش، فما هي الخطوط العريضة لصيغة التعايش بين اللبنانيين؟

ج: في الواقع كما قلت إن بين اللبنانيين فرقًا. أنا بإمكاني أن أقول رأيي، ولكن ما أؤمن به وما أقترحه على اللبنانيين وما أُريده اليوم من رفاقنا رجال الإعلام أن صيغة التعايش كلما تمكنت من خلق المزيد من اللقاءات والاتصالات كان ذلك أفضل، بمعنى أن الاتجاه القائم اليوم حول اللامركزية السياسية أو اللامركزية الإدارية، كلاهما في تصوري غير صحيح لأن أيّ تحول نحو اللامركزية بعد الحرب يعتبر نتيجة للحرب وبالتالي سيكون أعمق من حجمه الذي يريده اللبنانيون. وفي تصوري أن على اللبنانيين بعد هذه الحرب أن يعودوا ولو لمدة 6 سنوات مثلًا إلى الصيغة المركزية المكثفة أكثر من السابق، يعني لو حولوا لبنان إلى محافظة واحدة مثلًا، أو تمكنوا نتيجة للمواصلات من خلق مراجعات مكثفة في المناطق المختلفة حتى يفرضوا على اللبنانيين مزيدًا من التعايش والاختلاط، فذلك أفضل لأن لبنان كلّه في تصوري بمثابة محافظة من محافظات الدول الكبرى، هذا ما أراه وأتمناه وأقترحه على اللبنانيين، لأن لبنان بتعايشه فقط يتمتع باحترام العالم وبعناية أكثر منه وبروزًا فيه.

س: يقال إن الميثاق الوطني وضع على أسس لم تعد موجودة حاليًا؟

ج: لا يصح أن نبالغ في تأثير الميثاق الوطني، لأنه كان انعكاسًا لاتجاهات سياسية التقت، أما التعايش اللبناني فهو أقدم من الميثاق الوطني ومن واضعي الميثاق الوطني ومن آبائهم وأجدادهم. منذ ألف سنة اللبناني فتح عينيه فوجد جاره من غير دينه، وأكل من عنده وضيّفه، والتجأ

وعاشا في الآلام والآمال، وكان بينهما من الصِلات والوثائق أكثر بكثير مما كان بين الناس في البلدان الأخرى. لذلك، إن التعايش هو من صميم الحياة اللبنانية وما نشاهد في ظروف اليوم هو في تصوري ظروف استثنائية ناتجة عن بقايا إعلام الحرب، وسنتغلب عليها بالقوة والإخلاص.

محطات تاريخية في سيرة سماحة الإمام

السيد موسى الصدر (أعاده الله وأخويه)

وُلد في 4 حزيران 1928 في قُمّ وأُخفِيَ قسرًا في 31 آب 1978 في ليبيا.

1928

4 حزيران: وُلد الإمام السيد موسى الصدر في مدينة قُمّ-إيران، من عائلة من كبار العلماء العاملين التي تعود جذورها إلى السيد صالح من قرية شحور العاملية في جنوب لبنان وإلى الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام)، والده المرجع آية الله السيد صدر الدين الصدر ووالدته السيدة صفية القمّيّ كريمة المرجع آية الله العظمى السيد حسين القمّيّ.

1934

تلقى علومه الابتدائية وأنهى دراسته الثانوية في مدارس قُمّ في العام 1947.

1941

دخل الحوزة العلمية وتابع تحصيل العلوم الفقهية وتدريسها وصولًا إلى درجة الاجتهاد في مدينة قُمّ المقدسة في العام 1954، دون أن ينقطع عن علومه المدرسية.

1942

نشر وهو في سن الرابعة عشر مقالًا تحت عنوان "إلى متى العذاب" في جريدة "استوار" باللغة الفارسية لشرح آلام وآمال الشعب الإيراني.

1950

التحق بجامعة طهران، كلية الحقوق، وكان من أوائل المعمّمين الذين تلقوا العلوم الحديثة في الجامعة وتخرّج حاملًا إجازة في الاقتصاد السياسي، كما استمر في الدراسة والتدريس في الحوزة.

1953

عمل مع آخرين من الشباب الجامعي على التصدي للدعاوى الرائجة آنذاك المعادية للإسلام كالماركسية وغيرها. كان من المتابعين لحركة تأميم النفط 1952، متواصلًا مع آية الله السيد أبو القاسم الكاشاني ورئيس حركة "فدائيان إسلام" الشهيد السيد نواب صفوي والذي كان يعقد اجتماعاته السرية آنذاك في منزل والده آية الله العظمى السيد صدر الدين الصدر.

1954

سافر إلى النجف الأشرف لمتابعة تحصيل العلوم الدينية العليا، وشارك في "جمعية منتدى النشر" وأصبح عضوًا في هيئتها العلمية، والتي كان من اهتماماتها عقد الندوات الثقافية ونشر أبحاثها ودراساتها.

1955

تزوّج من السيدة باروين خليلي كريمة الشيخ عزيز الله خليلي ورُزِقَ منها أربعة أولاد هم: السادة صدر الدين (1956) وحميد (1959) وحوراء (1962) ومليحة (1971).

زارَ مدينة صور-لبنان للمرة الأولى تلبية لدعوة الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين، والذي وصّى به خلفًا له، وأعاد الزيارة مرة ثانية سنة 1957.

1958

عاد إلى حوزة قُمّ العلمية وشارك في تأسيس مجلة "مكتب إسلام" كما تولى رئاسة تحريرها، وله فيها مقالات عدة. وكان لهذه المجلة، وهي أول مجلة ثقافية إسلامية صدرت في الحوزة العلمية في مدينة قُمّ، أثر مميز في تشكيل الوعي النهضوي في إيران.

1959

شارك مع آخرين (منهم: آية الله السيد محمد بهشتي، آية الله الشيخ أحمد آذري قمي، آية الله السيد ناصر مكارم الشيرازي) في تدوين مشروع إصلاح المناهج العلمية في الحوزة.

قدم إلى مدينة صور-لبنان حيث خَلَفَ فيها الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين (قدس) كعالم دين، وذلك بطلب من المؤمنين في لبنان وبتشجيع ومباركة من المراجع العِظام في النجف وقمّ وخاصة المرجع الأعلى آية الله العظمى السيد حسين البروجردي (قدس).

1961

أطلق عمله الاجتماعي المؤسساتي بدءًا بإعادة تنظيم هيكلية "جمعية البرّ والإحسان"، ومرورًا بإنشاء مؤسسات عامة تعنى بالشؤون التربوية، المهنية، الصحية، الاجتماعية والدينية. وقد أثمرت هذه النشاطات إنجازات عديدة، منها: إلقاء مئات المحاضرات في المراكز والمعاهد بهدف التوعية الاجتماعية والدينية، إعطاء المرأة دورًا أساسيًا في العمل الاجتماعي والتنموي بدءًا باستحداث دورات محو الأمية، القضاء على ظاهرة التسول في مدينة صور وضواحيها من خلال مشروع دعم يتضمن برامج صحية، اجتماعية وإنشاء صندوق الصدقة، ومؤسسة جبل عامل المهنية وأُسْنِدتْ إدارتها إلى الشهيد الدكتور مصطفى شمران وكان لها الدور الأساسي في تخريج المجاهدين الذين تصدوا للاعتداءات الإسرائيلية منذ بداياتها.

أرسل موافقة خطية أكد فيها جواز تسهيل إصدار قانون نقل الأعضاء لوزير الصحة صلاح سلمان، الذي سعى إلى إقرار هذا المشروع بعد إجراء أول عملية زرع كلوة في لبنان وبعد تبيّن نقص في القوانين التي ترعى نقل الأعضاء.

1963

8 حزيران: شارك في قداس أقيم في صور عن روح قداسة البابا يوحنا الثالث والعشرين، وأبهر الحضور عندما أخذ يشرح رسالة البابا الراحل "السلام على الأرض" عن علاقة الإنسان بالدين.

6 تموز: حَضَرَ مراسم تتويج قداسة البابا بولس السادس وكان رجل الدين المسلم الوحيد الحاضر في هذه المناسبة. وساهمت لقاءاته في الفاتيكان وعرضه لمعاناة الشعب الإيراني وعلماء

الدين في ظل حكم الشاه في إطلاق سراح الإمام الخميني من سجنه.

21 آب: أعلن وبعد عودته من جولة قام بها في أوروبا واستمرت شهرين، أن هدف رحلته كان التعرف على الحضارات الجديدة والوقوف على مجالات التقدم فيها لجهة تطوير مناهج وأساليب العمل في المؤسسات الخيرية والاجتماعية.

1964

6 نيسان: باشر التعاون والعمل المشترك مع "الندوة اللبنانية" التي أشرف عليها الأستاذ ميشال أسمر، وساهمت في الحوار وبناء العلاقات وارتقاء الفكر وفتح الجسور الاجتماعية والدينية والسياسية، وضمّت العديد من الشخصيات الفكرية والثقافية والعلمية والاجتماعية والسياسية من الطوائف اللبنانية كافة، وألقى فيها محاضرات عدة منها: "الإسلام وثقافة القرن العشرين".

1965

31 تموز: استَعَادَ جنسيته اللبنانية بناءً على مرسوم جمهوري أصدره الرئيس فؤاد شهاب.

1966

حزيران: صدَّر لترجمة كتاب "تاريخ الفلسفة الإسلامية" للمستشرق هنري كوربان.

30 حزيران: ألقى كلمة "الحرية لا تُصان إلّا بالحرية" في تأبين الصحافي كامل مروة.

15 آب: عقد مؤتمرًا صحفيًا بيّن فيه الأسباب الموجبة لتنظيم الطائفة الشيعية وذلك بعد دراسات واستشارات وتحركات مكثفة ما أدى إلى إقرار مجلس النواب قانون إنشاء المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى عام 1967. كانت هذه الخطوة مقدمة لحركة مطلبية إنمائية لبنانية عامة.

1967

8 شباط: حاضر في الجامعة الأميركية تحت عنوان "الإسلام وكرامة الإنسان"، ضمن سلسلة محاضرات بعنوان: "حول الله والإنسان في الفكر الإسلامي المعاصر" بمناسبة العيد المئوي للجامعة الأميركية.

20 شباط: بدأ جولة على أفريقيا للتعرف على الجالية اللبنانية وتفقد شؤونها والعمل على ربطهم بوطنهم، كما التقى بالرئيس العاجي أُفويه بوانييه وبالرئيس السنغالي ليوبولد سنغور وقدّم لهذا الأخير بإسم الجالية اللبنانية مساعدة رمزية للأيتام في السنغال. أثنى سنغور على بادرة الإمام مشيرًا إلى أنه يتتبع بكلّ اهتمام نشاطاته التي كان لها التأثير الكبير في بثّ شعور المحبة والإيمان بين المواطنين.

15 أيار: حاضر في جامعة دكّار أثناء زيارته إلى السنغال تحت عنوان "الجانب الاجتماعي في الإسلام"، بحضور مؤسسة طلبة المسلمين في دكار ولفيف من الجالية اللبنانية.

19 كانون ثانٍ: كتب مقدمة "حكاية العلم والدين" لكتاب "العلوم الطبيعية في القرآن" للكاتب الدكتور يوسف مروة وفيها شرح التلاقي بين العلوم والدين.

1968

أيار: حاضر في جامعة ستراسبورغ في فرنسا تحت عنوان "الشيعة الإمامية".

22 أيلول: صدَّر كتاب "فاطمة الزهراء: فصل من كتاب الرسالة الإلهية" للأديب سليمان كتاني، والذي فاز بالجائزة الأولى في مسابقة عن السيدة الزهراء في النجف الأشرف.

16 كانون أول: فَتَحَ باب التبرُّع للثورة الفلسطينية بإقامته حفل إفطار رمضاني وسبق ذلك استحصاله على فتوى من المرجع الأعلى السيد محسن الحكيم بجواز صرف الحقوق الشرعية لدعم المقاومة.

1969

22 أيار: انتُخِب للمرة الأولى رئيسًا للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى وأعلن برنامج العمل لهذا المجلس.

29 أيار: من جهة أخرى أعلن أن الطوائف المتعددة في لبنان نوافذ حضارية على جميع العالم وأكّد على التفاعل والعيش المشترك بينها.

22 آب: وجَّه نداءً إلى المسلمين والمسيحيين والعرب تعليقًا على جريمة إحراق المسجد الأقصى في القدس المحتلة من قِبَل الصهاينة.

1 تشرين أول: وجّه رسالة إلى مفتي الجمهورية اللبنانية فضيلة الشيخ حسن خالد، دعا فيها إلى جمع الكلمة لتوحيد الطاقات ولتنمية الكفاءات، واقترح عليه البدء بالعمل على توحيد الشعائر العبادية الإسلامية تمهيدًا للهدف الأسمى وهو الوحدة في الفقه، والمساعي المشتركة والموقف الموحّد في قضايا المسلمين عامة ولبنان خاصةً. وعليه، فقد تضمنت الرسالة اقتراحًا واضحًا بالاعتماد على الطرق العلميّة الحديثة لاكتشاف وجود الهلال في الأفق في زاوية محددة توصلًا لتحديد يوم العيد بصورة دقيقة.

1970

29 كانون ثانٍ: استأنف حملة تعبوية إعلامية للدفاع عن الجنوب في وجه الاعتداءات الإسرائيلية مطالبًا بتسليح المواطنين وتدريبهم للدفاع، ووضع قانون خدمة العلم، وتنفيذ مشاريع إنمائية مع دعوة الناس للصمود في قراهم وعدم النزوح.

7 آذار: انتُخبَ عضوًا دائمًا في المجلس الدائم لمؤتمر مجمع البحوث العلمية الإسلامية.

11 آذار: استقبل الرئيس المصري جمال عبد الناصر في منزله سماحة الإمام الصدر لمدة تزيد على ثلاث ساعات، وتمحور اللقاء حسب ما أبرزته كبرى الصحف المصرية عن قضايا الأمة العربية والإسلامية الراهنة لجهة تمتين الوحدة الإسلامية والعربية في سبيل توحيد الجهود في مواجهة العدوانية الصهيونية وتحرير فلسطين، كما وتمتين الوحدة اللبنانية والحرص على تأكيد تنظيم العلاقات بين لبنان والمقاومة الفلسطينية. وكان لهذا اللقاء الأثر الفاعل لاحقًا في هذه الأطر حيث أبرزت كبرى الصحف أن الرئيس عبد الناصر ودّع سماحة الإمام الصدر إلى باب سيارته مع تمنٍ عليه تمديد زيارته أسبوعًا للاحتفاء به.

20 أيار: أسّس "هيئة نصرة الجنوب" بمشاركة رؤساء الطوائف اللبنانية في الجنوب، وذلك لتدارس الأخطار المحدقة بهذه المنطقة، ومواجهتها.

26 أيار: دعا إلى إضراب سلمي وطني عام شمل لبنان بمناطقه كافةً تضامنًا مع فكرته الداعية إلى وقوف كلّ لبنان مع جنوبه في سبيل تعزيز صموده في وجه العدوانية الصهيونية الإسرائيلية. فاجتمع مجلس النواب وأصدر قرارًا بإنشاء "مجلس الجنوب" نتيجة لهذا الإضراب وبهدف تنمية الجنوب ورفع الحرمان عنه.

10 آب: قام بجولة على بعض العواصم الأوروبية دعمًا للقضية الفلسطينية، وعقد مؤتمرًا صحفيًا في مدينة بون-ألمانيا الاتحادية في المقر التمثيلي للجامعة العربية، أوضح فيه حقيقة القضية الفلسطينية وندّد بمحاولات تهويد المدينة المقدسة.

30 آب: في مقابلة صحافية في فرنسا قال: "إن مأساة فلسطين لطخة سوداء في الضمير العالمي، وإن نضال الشعب الفلسطيني هو دفاع عن الأديان وعن قداسة القدس، وإن إسرائيل دولة عنصرية توسعية، وإن لبنان بتعايش الأديان فيه ضرورة دينية حضارية".

2 تشرين أول: شارك في تشييع الرئيس المصري جمال عبد الناصر، والذي رأى فيه الإمام وحدة وآمال الأمة الإسلامية

1971

2 آذار: ألقى محاضرة في كلية الشريعة في جامعة القرويين في مدينة فاس-المغرب (بدعوة من الملك الحسن الثاني) ضمن فعاليات سنوية، أطل فيها على المراكز والمؤسسات الدينية والثقافية في العالمين الإسلامي والعربي.

29 آذار: شارك في القاهرة في المؤتمر السادس لمجمع البحوث الإسلامية وقدّم بحثًا بعنوان "رعاية الإسلام للقيم والمعاني الإنسانية".

2 نيسان: زار جبهة السويس وأمضى فيها عدة أسابيع حيث اجتمع إلى العسكريين، وأمَّ الصلاة في أحد مساجد المدينة، ودعا إلى وجوب التمسك بالدين وإعلان الجهاد المقدس في سبيل تحرير فلسطين، كما اقترح مشروع "سندات الجهاد" لتفعيل المشاركة على المستويات الشعبية كافة في الجهاد لتحرير الأراضي المقدسة.

15 أيار: استقبل مفتي آسيا الوسطى وكازاخستان فضيلة الشيخ ضياء الدين باباخانوف والوفد المرافق له أثناء زيارتهم لبنان.

28 حزيران: أرسل المخرج والمنتج مصطفى العقاد رسالة إلى الإمام الصدر لمراجعة نص سيناريو فيلم "محمد رسول الله"، وصدر على إثرها موافقة رسمية من المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى بعد إدخال تعديلات على النص.

23 تموز: أكد خلال حوار صحفي أن وجود الطوائف في لبنان خير مطلق، أما النظام الطائفي فشرٌّ مطلق أعطاه الإقطاع السياسي لون القداسة، ولذلك طالب بإلغائه.

20 أيلول: على إثر العدوان الإسرائيلي على الجنوب، طالب بوجوب تأمين وسائل الدفاع الحديثة وتعميم الملاجئ وتحصين القرى.

1 كانون أوّل: وجّه رسالة إلى القس البريطاني هيربرت أدامز حول حقيقة وضع الإنسان في منطقة الشرق الأوسط، وضمّنها نداءً إلى مسيحيي العالم دعاهم فيه إلى التيقظ لخطورة ما يجري في فلسطين.

1972

20 أيلول: أصدر الإمام الصدر تصريحًا في بلدة جويا-جنوب لبنان، حول الأخطار المترتبة على تزايد الاعتداءات الإسرائيلية على الجنوب. ودعمًا لصمود الجنوبيين كثّف الإمام الصدر تحركاته السياسية والإعلامية عبر: إصدار بيانات للرأي العام الوطني والعالمي، إلقاء المحاضرات والخطب في المساجد والكنائس والجامعات محذرًا من النتائج المترتبة على إهمال الدولة لتحمل مسؤولياتها تجاه الدفاع عن الجنوب وتنمية المناطق المحرومة.

24 تشرين ثانٍ: زار الاتحاد السوفياتي على رأس وفد من علماء الشيعة، بدعوة من مفتي آسيا الوسطى وكازاخستان فضيلة الشيخ ضياء الدين باباخانوف، وصلى في جامع موسكو الكبير بحضور ألوف من المصلّين، وتحدث عن الشرق وأوضاعه واعتداءات إسرائيل وأطماعها فيه.

1973

20 أيار: أعلن في خطبة الجمعة أن السعي لتحرير فلسطين سعي لإنقاذ المقدسات الإسلامية والمسيحية وسعي لتحرير الإنسان، كما أنه نادى بعدم تشويه سمعة الله في الأرض، لأن الصهيونية بتصرفاتها تشوّه سمعة الله.

30 حزيران: دعا إلى اعتماد النظام المدني المؤمن كبديل عن النظامين الطائفي والعلماني.

10 تموز: شارك في الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي في مدينة "تيزي أوزو" في الجزائر حيث ألقى بحثًا تحت عنوان "روح الشريعة الإسلامية وواقع التشريع اليوم في العالم الإسلامي".

9 تشرين أوّل: دعا إلى الجهاد عند اندلاع حرب رمضان، وقاد حملة تبرعات لنصرة المجاهدين.

1974

17 آذار: أقسم مئة ألف شخص معه في مهرجان بعلبك على عدم الهدوء حتى لا يبقى محروم أو منطقة محرومة في لبنان وأدّى ذلك إلى ولادة "حركة المحرومين".

26 نيسان: قدّم بحثًا تحت عنوان "الإمامة وعاشوراء" بدعوة من طلاب مدرسة الآداب العليا ضمن ندوة دراسية تحدث فيها عن معاني الشهادة وارتباطها بمعركة الحق ضد الباطل.

5 أيار: أقسم مئة وخمسون ألف شخص في مهرجان صور على متابعة المطالبة بحقوق جميع المحرومين.

20 تشرين ثانٍ: صدرت "وثيقة المثقفين" المؤيدين لحركة الإمام الصدر المطلبية التي وقعتها 191 شخصية من قادة الرأي والفكر في لبنان، يمثّلون الفئات والطوائف اللبنانية كافة.

1975

19 شباط: ألقى عظة الصوم في كنيسة الآباء الكبوشيين تحت عنوان "الإنسان في حاجاته وكفاءاته"، حيث كان أول رجل دين مسلم يُلقي عظة في كنيسة.

7 آذار: صلّى على جثمان الشهيد معروف سعد في الجامع العمري في صيدا.

18 آذار: بادر إلى بذل المساعي والجهود لدى مختلف الأفرقاء لوأد الفتنة وتهدئة الوضع في لبنان، فوجَّه النداء تلو النداء محذِّرًا من مؤامرات العدو ومخططات الفتنة، ودعا اللبنانيين لحفظ وطنهم وفي قلبه مكان للثورة الفلسطينية.

29 آذار: في اجتماع الهيئة العامة للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى بويع كرئيس للمجلس مدى الحياة بناءً على تعديلات المواد في قانون المجلس.

20 نيسان: شكَّل "لجنة التهدئة الوطنية" والتي عُرفت بلجنة ال- 77 محدِّدًا خطوط تحركها العريضة بالمحافظة على التعايش واعتماد الحوار والوسائل الديمقراطية لتحقيق الإصلاحات ووجوب المحافظة على الثورة الفلسطينية، وكان أعضاؤها يمثلون القوى السياسية والطائفية والمناطقية على مستوى لبنان كافة.

27 حزيران: احتجاجًا على استمرار الحرب الأهلية بدأ اعتصامًا في مسجد الصفا في الكليّة العاملية-بيروت متعبدًا صائمًا وأنهاه في الأول من تموز بعد اشتداد المعارك في منطقة بعلبك-الهرمل موجّهًا نداءً إلى أهالي المنطقة وفي السياق تمّ تشكيل حكومة مصالحة وطنية تبنَّت مطالبه الشعبية. وتوجَّه بعدها إلى قرى القاع ودير الأحمر وشليفا في البقاع لفك الحصار عنها ووأد الفتنة الطائفية.

6 تموز: أعلن عن ولادة "أفواج المقاومة اللبنانية-أمل" في مؤتمر صحفي عقده لأداء دورها في تحرير الأرض والإنسان، بعد أن كانت قد خاضت معارك عدة ضد العدو الصهيوني.

26 تموز: ألقى بحثًا في الملتقى التاسع للفكر الإسلامي في تلمسان-الجزائر تحت عنوان "العدالة الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام وأوضاع الأمة الإسلامية اليوم"، حول مفهوم الرؤية الإسلامية للعدالة.

4 تشرين أول: دعا لعقد القمة الروحية لجميع رؤساء الطوائف اللبنانية في مقر البطريركية المارونية في بكركي، والتي كان لها أثر في تخفيف الاحتقان.

21 كانون أول: حذَّر في خطبة ألقاها في نادي الإمام الصادق في صور من أخطار ثلاثة ودعا إلى التصدي لها مهما كلّف الأمر: خطر التقسيم لأن التقسيم إسرائيل ثانية في قلب الوطن؛

وخطر الاعتداءات الإسرائيلية الذي يجب علينا وجوبًا شرعيًا وتاريخيًا ووطنيًا أن نقف للتصدي لها؛ وخطر تصفية المقاومة الفلسطينية. إن إسرائيل شرّ مطلق وخطر على العرب مسلمين ومسيحيين وعلى الحرية والكرامة.

1976

31 آذار: عمل جاهدًا على تقريب وجهات النظر بين القيادة السورية وقيادة المقاومة الفلسطينية مؤكدًا أن ذلك قدرهما، وأن الصدام بينهما سيؤدي إلى سقوط لبنان وتحجيم المقاومة، وإلحاق الضرر بسورية والقضية العربية وأن المستفيد الوحيد من كلّ هذا هو إسرائيل.

14 أيار: شارك في اجتماعات القمة الإسلامية اللبنانية في بلدة عرمون التي وافقت على "الوثيقة الدستورية" التي أعلنها رئيس الجمهورية سليمان فرنجية، واعتبرها مدخلًا للسلام والوفاق الوطني في لبنان.

23 أيار: عارض بشدة الدعوة إلى العلمنة والإدارات المحلية، واعتبر أنها تسلب الجماهير المؤمنة مكاسبها وتعبِّر عن ذهنية انفصالية تمهّد لتقسيم الوطن.

تشرين أول: بذل الإمام جهودًا مكثفة مع الزعماء العرب في محاولة لإنهاء الحرب الأهلية اللبنانية، كان نتيجتها انعقاد مؤتمر الرياض 16 تشرين أول وقمة القاهرة 25 تشرين أول ودخول قوات الردع العربية إلى لبنان.

1977

17 كانون ثانٍ: أكّد أن لبنان ضرورة حضارية للعالم، وأن التعايش اللبناني هو ميزة لبنان الخاصة، وأن السلام لقاء تاريخي محتوم بين الإسلام والمسيحية.

11 أيار: تقدَّم بورقة عمل تحمل مقترحات حول الإصلاحات السياسية والاجتماعية تدعو إلى إعادة بناء الوطن ومؤسساته متمسكًا بصيغة العيش المشترك ومواجهة الخطر الصهيوني، وأكّد فيها أن "لبنان وطن نهائي لجميع أبنائه".

14 آب: في مهرجان أُقيم بمناسبة مرور أربعين يومًا على استشهاد الدكتور علي شريعتي، أحد أبرز المفكرين الإسلاميين تأثيرًا في إيران، جدَّد دعمه للحركة الإسلامية في إيران.

1978

13 شباط: قام بجولة على السنغال وشاطئ العاج لتفقد الجالية اللبنانية ولافتتاح عدد من المشاريع الدينية والاجتماعية.

18 آذار: وصل إلى لبنان بعد أن قطع جولته بسبب الاجتياح الإسرائيلي للبنان ليل 14-15.

23 آب: نشر مقالًا في صحيفة "لوموند" الفرنسية حول تعاظم الانتفاضة الشعبية في إيران تحت عنوان "نداء الأنبياء".

25 آب: جَالَ على عدد من الرؤساء والملوك العرب إثر الاجتياح الإسرائيلي للبنان حيث وصل وأخويه فضيلة الشيخ محمد يعقوب والأستاذ الصحافي السيد عباس بدر الدين إلى طرابلس-ليبيا في 25 آب تلبية لدعوة رسمية من سلطاتها العليا وحُجزَ وأُخفِي قسرًا من بعد ظهر 31 آب وحتى اليوم.

ادعت ليبيا أن ضيوفها تركوا الأراضي الليبية متجهين إلى إيطاليا. كذَّب كِلا القضاءين الإيطالي واللبناني هذا الادعاء بعد تحقيقات مطولة ونفيا دخول أيّ من الثلاثة موانئ إيطاليا البحرية والبرية والجوية.

منذ ذلك اليوم، تبحث عائلة الإمام وأصدقاءه ومحبيه عن وضع نهاية للإخفاء القسري للإمام وأخويه في ليبيا، بكلّ الوسائل وخاصة القانونية والقضائية المتاحة.

هذا التحرك والمتابعة المستمرة والحثيثة للعائلة وبدون كلل، خاصة عبر القنوات الرسمية والقضائية اللبنانية والإيطالية وغيرها، أحبطت مقاومة النظام الليبي السابق ليعترف القذافي بجريمة خطفه للإمام ورفيقيه في ليبيا.

ومنذ قيام الثورة، والوضع السياسي المتأزّم يزيد من صعوبة الوصول إلى النتيجة المرجوة رغم وعود السلطات الليبية الجديدة بالتعاون مع السلطات اللبنانية في هذه القضية.

ولكن جهود عائلة الإمام وأصدقائه، مدعومة من بعض السلطات اللبنانية العليا ذات الصلة، لن تتوقف حتى تحرير الإمام وأخويه وعودتهم سالمين إلى بلدهم.

مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات

بيروت 31 آب 2019



كشاف الكلمات

-أ-

-ب-

-ت-

–ث–

-ج-

-ح-

-خ-

-د-

-ر-

-ز-

–س–

-ش-

-ص-

-ض-

-ط-

-ظ-

-ع-

-غ-

–ف–

الفيلسوف انظر الفلاسفة

-ق-

-ك-

-ل-

اللقاء: 13

اللقاءات الأفرو –آسيوية: 137

-م-

–ن–

-هـ-

-و-

-ي-

قائمة المحتويات

Notes

[1←]

عظة الصوم التي ألقاها في كاتدرائية مار لويس اللاتينية للآباء الكبوشيين في بيروت بتاريخ 19 شباط 1975 بدعوة من المطران بولس باسيم في سلسلة محاضرات الصوم الكبير

[2←]

من محاضرات ندوة دائرة الفلسفة المنعقدة في الجامعة الأميركية في بيروت بمناسبة العيد المئوي للجامعة الأميركية، بتاريخ 8 شباط 1967

[3←]

محاضرة ألقاها في كلية بيروت للبنات في صيف 1966، وأعاد إلقاءها في مقر المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين في القاهرة بتاريخ 19 آذار 1970. ونُشرت في كتاب "مصادر الثقافة في لبنان"، مكتبة لبنان، وفي كتيب "الأصالة، الروحية، التطور"، جمعيات الشبان المسلمين 1970

[4←]

بحث قدّمه خلال مشاركته في المؤتمر السادس لمجمع البحوث الإسلامية، في القاهرة بتاريخ 29 آذار 1971

[5←]

محاضرة ألقاها بدعوة من مؤسسة الطلبة المسلمين في جامعة دكار-السنغال بتاريخ 15 أيار 1967

[6←]

الدكتور نمر صبَّاح أستاذ اللغة العربية وآدابها في جامعة دكار- السنغال

[7←]

بحث قدَّمه ضمن مشاركته في الملتقى التاسع للفكر الإسلامي، الجزائر- تلمسان بتاريخ 26 تموز 1975

[8←]

كلمة ألقاها في تأبين الصحافي كامل مروة في الزرارية بتاريخ 30 أيار 1966

[9←]

كلمة ألقاها خلال لقائه وفد من نقابة المحررين في المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، بتاريخ 17 كانون ثانٍ 1977